



قصص

الأم

السيد معروف

غائب طعمة فرمان



آلام
السيد معروف

آلام السيد معروف

قصص

غائب طعمة فرمان



١٩٨٢

جميع الحقوق محفوظة

دار الفارابي ص . ب . ٣١٨١

بيروت تلفون ٣١٧٢٠٥

الطبعة الأولى ١٩٨٢

إلى الشهداء الأحياء
من لهم شبه بالسيد معروف .
غائب

للغروب فتنة لدى السيد معروف لا تعادلها فتنة أخرى في الدنيا كلها. كان إذا استقبله من ركنه المنزوي في المقهى المطل على النهر لم يعد يستهويه أي شيء آخر فيما حوله؛ لا الطيور التي كانت ترف فوقه منقضة على صدر النهر، مصعدة في السماء الشفافة، حتى تغيب عن الدنيا، لأنه يعرف أن الطيور ستعود، في آخر الأمر، إلى وكناتها، ولا الغمام السابح كالقطن المنفوش لأنه سرعان ما يندمج في الأفق ويتبدد، ولا الطائرات التي كانت، أحياناً، تلوح من خلف صف النخيل في الجانب الآخر من النهر، وتحلق، وتصفى، وتغيب عن العين، لأنه كان يعرف أنها ستحط في مطار من مطارات العالم الواسع.. أما هذا الغروب الساجي فيظل يطوي الآماد، ويعاتق الآفاق، ويظل يلزمها إلى ما لا نهاية، هارباً من ظلامية الليل التي كان السيد معروف يكرها كرهاً شديداً، فيودُّ لو يلاحقه إلى الأبد، معانقاً مثله الآفاق، دون أن يشهد الليل الكئيب، أو الظلام المتوحش، حتى كان يردد، أحياناً، مستغفراً الله عن تحريفه لكلامه المنزل: «ولكم في الغروب حياة يا أولي الالباب»! فالعمر مع رحلة الغروب، يتمدد ساعات تعوّض عن خسارة يوم قضاه بين أربعة جدران وراء آلة طابعة عتيقة منحوسة تسبب له آلاماً بالمفاصل، ومغصاً بالمعدة، ووشوشة في الأذنين، وزغللة في العينين. شيء في الغروب شجي وبهيج وفاتن وعنود فيه سحر الديومة، وفتنة الأزل ومطال الأجل لا مثل الشروق الخاطف سرعان ما يسلم زمامه إلى شمس لاهبة، وهواء وغر. والغروب بعد

كل شيء ، صار رمز حياته . حياة السيد معروف الآيلة إلى الغروب ، حياته الشاحبة المتراجعة المتقلصة ، المتراكضة ، كالغروب نفسه ، نحو هوة أفق غامض ، دون أن يستطيع أن يمسك بها ، أن يوقفها ، ويتأمل فيها ، كما لا يستطيع أن يوقف الغروب ، ليتأمل فيه . وكان السيد معروف يدرك ، في قرارة نفسه ، أن من اليأس أن يتعشق المرء الغروب لا الشروق . لكنه يعود فيقول لنفسه : كيف يعشق المرء شيئاً لا يذكر أنه رآه ، في مجده المروي والمحكي عنه ، في أي يوم من أيام حياته . فقد كانت الشمس تنبع من وراء ألف جدار ، في مدينته الملتفة على نفسها ، كالشرنقة المتلاصقة الجدران ، الضيقة الأزقة ، المدينة المتراخية التي تربى فيها وقضى شبابه ، ويقضي الآن كهولته العامرة بالإيمان . الشروق بداية نهار لاغب ، موقر بالتعب ، وحرقت الأعصاب ، دون أي جدوى ولا أية فرحة ، ولا أي ثقب صغير في السماء يمكن أن يرى فيه نجمة ويستطيع بثقة أن يوسعه إذا لاح له في المنام . أما الغروب فقد كان يراه في مجده الأرجواني ، كلما جاء إلى مقهاه ، أي في كل يوم تقريباً ، في سماء صافية صاحية من خلال سحب مهلهلة الأذيال ، يسهل على الغروب الهارب أن يضرم فيها النار ، وحتى حين كانت زوايع الرمل تهب قادمة من أمنا الصحراء يتمرغ الغروب كل مساء على صدرها الحنون الرحب ذي الاثداء الألف من كثران الرمال ، فتتلون ذرات الرمل بصبغة كدرة من لونه الناصل الحمرة ، فترى الغروب يرقص في شوارع المدينة ، ويلون الوجوه والأشياء والهواء نفسه ، ويتجلى بكل عظمته المهيبة المدججة برمال الصحراء . وكان السيد معروف يأتي إلى الغروب كالمستجير هارباً من مشاكل بيته الصغيرة والعويصة في نفس الوقت ، سارحاً في مراعيه الوردية بنعاج خياله ، فيتخيل

الأراضي والبحار والجبال والوديان والأنهار والبحيرات والمدن والقرى التي مرّ بها الغروب ، ويظل يتابع مساره مثلما سيتابعه اليوم . في البداية سيختفي وراء خط النخيل ، تاركاً الجانب الشرقي بين محالب ليل مفترس ، ثم يتعدى حدود المدينة العريقة بسرعه الضوئية الخارقة ، ويظل على مشارف الشام ، ثم يدخل فاتحاً دمشق ، محتاحاً عمان ، وبعد ذلك يتسلق جبال لبنان ، أو عقاب لبنان ، على حدّ قول الخالد الذكر شاعرنا المتني ، ويضجّ مسالكها الخضراء ، وذراها البيضاء ، ثم يسقط على مياه المتوسط الزرقاء الشفافة على ما يتصورها ، ويظل السيد معروف يمتطي صهوة جواده ، ويتسلم مفاتيح المدن التي يغزوها الغروب الفاتح بأمر الله .

اليوم خرج السيد معروف من البيت مهموماً تلاحقه أنات أمه ، وتوجعاتها المزمنة . كانت السماء صاحبة ، والشفق يلون ذرات الغبار العالقة بالهواء . وفي الشوارع حركة مرحة ضاحكة ، والناس صاخبون منفعلون ، وكأنهم يتهيأون لمغامرة مع المساء ، على بعد أمتار . سيتسلق درجاته الثلاث ، ويسلم رافعاً ذراعه لصاحبه ذي اللحية الخفيفة البيضاء ، ويقطع القاعة المتشنجة برنات قطع الدومينو والطاولي (النرد) ، ويدلف من باب الزجاج يؤدي به إلى شرفة واسعة ، أشبه بشناثيل ، واجهتها المطلة على النهر نوافذ زجاجية ترتفع عن أرض المقهى بحوالي متر ، وتنتهي بنصف دائرة من الزجاج الملون أشبه بالمروحة اليدوية . وسيجد الطلاب منكبين على كتبهم ، والصمت والهمس يدغدان الأعصاب وهيئان النفس إلى صلاة ومناجاة . سيسلم على بعض من يعرفهم ، بإغناء خفيفة لا تقطع على الطالب خيط أفكاره الرقيق ، ويتجه إلى ركنه المعهود ، مصلاه ، ويقابل الشمس في انحدارها الانسيابي خلف أهداب أشجار

النخيل في الجانب الآخر من النهر ، كالميناء الذي ستقلع منه سفينة الأحلام .

« نعتذر لزبائننا الكرام على غلق المقهى أيام قليلة لتوفير الراحة لهم » .

لم يقرأ هذه الرقعة إلاّ بعد أن صعد درجتين . كانت مكتوبة بخط سيء ، وبخطأ نحوي ظاهر يذكره بالكثير من المراسلات الرسمية التي تمر بين يديه كل يوم ، والتي لم يعد يحفل بها لياسه من إصلاحها . ولكن هذا الكتاب غير المرقم صدمه بعنف ، حتى همّ أن يخلعه ، ويمزقه ، مثلما يمزق كتاباً أخطأ في ضرب بعض كلماته على آله العتيقة . وقف مشدوهاً من المفاجأة ، ممتعضاً من الخطأ النحوي القبيح يطل من الورقة البيضاء ، مثل تكشيرة استهزاء يواجهه بها وجه صلف . زمّ السيد معروف شفّتيه وكوّرها ، ومطهما بأشمزاز . وخلال ذلك تجمع بعض الزبائن ، وقرأوا الإعلان سراً وجهارة ، وضحكوا ضحكات شتى لم تدخل واحدة منها السلوى في قلب السيد معروف ، الذي أضاع لقاءً منتظراً مع وجهٍ حبيب . وبدأ الآخرون يعلقون :

- سيفرشون لنا المقهى بالكاشان .
- ويبدلون الدومينو بأخرى من العاج .
- ويضاعفون السعر .
- سنجلس على آرائك .
- كل شيء إلاّ هذا .. لا يريدون أن نضعف .
- بالعكس يريدون أن نتعب من الجلوس ، فنصرف ويجل آخرون محلنا .

نفر من هذه التعليقات السخيفة ، وتجل بالهرب ، ونسي أنه

صعد درجتين ، فاختلَّ توازنه ، وكاد يقع لو لم يصطدم برجل سمين امتص الصدمة كالمفخاخ . إعتذر من فم جاف . وفي الطريق قال في نفسه: مساكين هؤلاء لا يهمهم إلاّ الدومينو والطاولي ، لو جردوا من كراسيهم ومناضدهم ، وفرشت لهم الأرض ، لتربّعوا أمام لعبهم كالأطفال . كاشان ، هرطمان ، الله ينصر السلطان .

وحثَّ خطاه ليستقبل الغروب على شاطئ النهر على الأقل . كانت المدينة تنهياً لليلها الأسود والزحلاوي . مقاصير بيع السمك ، والمقاهي المكشوفة ، والحانات المتناثرة كمصائد للغواية والضلالة . وهناك سيل لا ينقطع ممن يجرجرون أقدامهم بلا هدف ، أشلاء نهار يوشك أن ينقضي دون أن يخلف حسرة . وجميعهم ، على ما يظن السيد معروف ، فارغو القلوب ويتصيّدون ما يشغل بالهم ، ويلتهم ساعات فراغهم الفارغة . العيون تنلصص . الألسنة مستعدة للقليل والقال . زهد فيهم ، وأسرع بحث خطاه لكيلا يفوت مواعده مع الغروب ، تسابحه ومعرّجه إلى مدن وسماوات لا يحملون بها . من بين هذا الخلق ، في الشارع المسترخي بعد حرّ ظهيرة لا يرحم ، جمهرة غفيرة ، بالتأكيد ، من أولئك الذين جاءوا يتهوون من رائحة المكاتب ، وغبار الإضرابات . ومنهم من يزفر مثله ، رائحة « كاربون » ترسب في الأنف والحنجرة والأجفان . بعد قليل سيفسلونه بشيء من الخمرة ... ليته ، ليته يفعل مثلهم أحياناً ، ولكن المانع معدة مقروحة تتلوى حتى من زعيق السيارات ، وتثقياً من البهارات ، ولا تستريح إلاّ للّبن المطروق . واستنشق السيد معروف نفساً طويلاً عميقاً ، وزفر حثالة كاربون . وأحس أنه يدخل في بستان الغروب . فإن للغروب رائحة ندية تتجاوب مع رائحة غامضة أخرى كامنة في أغوار النفس تسري رعشة لذيدة خفيفة في

الظهر وخلف الأذنين كصدى لموسيقى غير مفهومة ، ولكنها مهددة .
ورأى الشمس ملثمة حتى العينين بخمار داكن من خضرة النخيل في
الجانب الآخر من النهر فردد : « قل للمليحة في الحمار الأسود ماذا
فعلت براهب متعبٍ؟! » حيّ على الغروب . أستغفر الله . وابتسمت
الأغوار المتلبدة للزجة من نهار كامل قضاه خلف آلة الطابعة . لا .
مليحتي ذات خمار داكن الخضرة تغمزي من وراء الطوفة ، هناك . .
أهلاً ، يا حبيبتي ، أهلاً . الأشياء كلها تستحم في الهوى الوردية التي
تغدينها على البشر ، منذ بدء الخليقة ، حيث لا شيء غير الشروق
والغروب ، ووجه ربك ذي الجلال والاحسان . حيّاك الله وبيّاك ،
وجعل الجانب الغربي مثواك . ولوّح بذراعه اليمنى للشمس خلصة ،
وكأنه يقول لها قبل أن تغادر المدينة : أنا هنا ، منذ بدء الخليقة
أيضاً ، منذ أن جعل الله في الأرض خليفة ، قبل أن يوسوس له
الشیطان ليفسد فيها ويسفك الدماء . خلقت من عجل ، لتسجد لي
الملائكة كلهم أجمعون . وتحسّر السيد معروف لأن ذراعه ليست
طويلة بعرض النهر لتصل إلى الشمس ، ليمسح عنها تلك البقع السود
الصغيرة ، حبات العرق عن جبين الشمس الدائرة منذ الأزل ،
وليعبر بهذه الالتفاتة المتواضعة ، عن عميق حبه لها بغروبها المرئي ،
وشروقها المحجوب عنه بألف جدار . وحانت منه التفاتة ، في لحظة
التجلي والمناجاة هذه ، فوق بصره على وجه مستدير ، مثل قرص
الشمس ، حتى لتوهّم أن الشمس عرفت ما دار في خلده ، وجاءت
إليه من الجانب الآخر ، ضاربة بعادتها الأزلية عرض الحائط ، لتدنو
منه ، وتستجيب لقصر يده ، وتدعه يمسح حبات العرق عن جبينها
الفتان . إلا أن لهذا الوجه عينين بشريتين واسعتين لامعتين ،
وشفتين قرمزيتين خيّل للسيد معروف أنه لمح ابتسامة عذبة حنوناً

ترف عليهما في شيء من الحرارة والحنان والفرحة باللقيا ، بهذا القرب الشبيه بالعناق ، وبهذا الوضوح الشبيه بالعري ، وبهذا التيبس الشبيه بالغيوبة . أو لعل الشفتين تحركتا تبادلانه بتحية ، بتلك اللغة السماوية العريقة ، قبل أن تخلق بابل ، ويبلبل اللسان . فكانت مفهومة له وحده ، موجهة إليه دون غيره ، وكان هذا الوجه ، في الحقيقة ، وجه امرأة بدا أليفاً جداً للسيد معروف ، مثل وجه قريب ضائع كان السيد معروف يبحث عنه ، طوال حياته ، والآن في مهرجان الغروب الاسطوري ، في ضربة حظ موفقة ، وجده أمامه مغموراً بالالق الحبيب إلى قلبه ، ألق الشمس الغاربة . وهمّ السيد معروف أن يتحرك من مكانه ، أن يقترب منه . إلا أنه خجل ونكص : فماذا سيقول له ؟ بماذا يناديه ؟ من أين يبدأ بالحديث معه ؟ ظل السيد معروف جامداً كالسحور ، دقائق لا يعرف لها عدداً ، يشرب تلك الأسارير الحلوة الصافية البسامة الحنون ، ليتركها تنفوس في تلافيف ذاكرته ، وتتشبع بها روحه وعقله وخياله . وتابع الناس يرون به كالامواج وكلفحات ريج شديدة تبعد الوجه الحبيب عنه ، وتلفه في زحام الناس . أراد أن يأتي بحركة ، باستغاثة ، إمسكوه ! هذا الذي كنت أبحث عنه ! ولكن أوصاله تجمدت ، وحلقه جف . وخيّل إليه أن عينيه أيضاً غابتا ، وأخذتا تفقدان الأبصار . فتحهما . كانت كتل الناس ، كالحجارة الصلدة ، تحجب عنه أفق بصره . حوّل صوب النهر . كانت الشمس قد اختفت ، وجثم غول المساء على صدر النهر بلونه الرصاصي تاركاً الطريق مفتوحاً لجحافل الليل .

وجد السيد معروف نفسه يسير مع سيل الناس مستقلاً عنهم بجزر ثمين ، وكأن الغروب القاه إليه في طريق رحلته الدائمة . وكان يحس

بنشوة غامضة ، وحدر عجيب ، وهو يخترق سيل الناس ، متفرداً عنهم بسر الغروب الراحل ، تاركاً رجليه تدبان إلى ما لا نهاية ، في ذلك الشارع الطويل المتعرج ، متوغلاً فيه إلى نقطة ، ربما لم يتوغل فيها طوال حياته الماضية . كان يريد أن يطيل لحظة النشوة الساهمة هذه ، وكأنه في حلم رآه بين اليقظة والنام ، ولا يريد أن يفتح عينيه ، ولا يريد أن يفكر أن ذلك ما هو إلا حلم عابر ، حتى لا يغيب عنه الطيف الحبيب الذي مرَّ به خطفاً ، في غفلة من الزمن ، بين زحام الناس ، وقفزات الخيال الشريد . أو كان مثل طفل وقعت في يديه فراشة ملونة ، فوضعها في قده زجاجي ، وهو يخاف أن تفلت ، ويخشى أيضاً أن يضع كفه على عنق القدرح مخافة أن تحتنق الفراشة وتموت . فتركها تضطرب في القدرح إلى أن تهتدي إلى الفتحة ، وتهرب . كان يريد أن يبقى الطيف العابر في أفق خياله أطول وقت ممكن ، دون أن يفكر ، تاركاً صورة الطيف تنطبع عميقاً في ذهنه . هدية الغروب . إبتسامة الغروب . كانت تطل عليه من علي . لا تفكر كثيراً ، يا سيد معروف . تشرب بها ولا تفكر . تأملها في خيالك ، ولا تفكر . أو فكر في موضوع آخر . أي موضوع ؟ موضوع آخر . لا بأس . كتابنا وكتابكم . الكتاب رقم واحد . في حياتك كلها ، يا سيد معروف . هل رأيت مثل هذه الابتسامة في حياتك كلها ؟ إبتسامة الغروب ، يا سيد معروف . إبتسامة حلوة وعينان ... عينان حدويتان .. فعلاً ، حدويتان .. فيهما من الرقة ما جعلك تذوب في مكانك . عجيب . كتابنا وكتابكم .. موضوع آخر .. فكر في موضوع آخر ، يا سيد معروف . موضوع آخر .. أين وضع هذا الموضوع ؟ فكر في موضوع آخر . الموضوع : تحويل تفكير . إستناداً إلى كتابكم المرقم . كم من الأشخاص والدوائر والأمم

والشعوب استندت إليه ، وما زال قائماً مثل طاق كسرى . جبل التوباد حياك الحيا .. هل كانت تلك الإبتسامة لي ؟ معقولة ؟ لا ، غير معقول . معقول ، غير معقول . اسكت ، يا سيد معروف . حوّل تفكيرك إلى موضوع آخر . الموضوع : تحويل تفكير . إستناداً .. لا تستند إلى شيء .. المصادفة أم المفاجآت . أختها ، عمتها .. ضررها . ربما كانت تلك الإبتسامة لي حقاً . إبتسامة حلوة ، وعينان ... حدوبتان . لست أعور ، ولا أحول ، ولا أعرج . رقبتي طويلة فقط . هل من المعقول أنها رأت رقبتي ؟ انقذ شرر من التقاء عينين بعينين . كفى ، لا تفكر . الموضوع : تحويل تفكير . كتابكم المرقم ، وكتابنا المرقم . بلا رقم . صفر . صفر على الشمال . وأتى السيد معروف حركة محبولة ، وتفتت التراب الهش تحت قدميه . وجد نفسه يمشي على حافة الرصيف المنسرح إلى جرف النهر . وتحت المنحدر نار مشتعلة « تُسَقَف » عليها ثلاث سمكات . صياد السمك اصطاد لك سمكة .. حورية ، كانت في انتظاره على الشاطئ ، ساعة في ألق الغروب الربيعي .. أتاك الربيع الطلق يحتال ضاحكاً .. مبتسماً .. ابتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . سيد معروف ، لا تفكر . حوّل تفكيرك . الموضوع : تحويل تفكير .. إستناداً ..

- سيد معروف ، مرحباً ؟

صوت رجالي . بوهت السيد معروف . سقط من السماء السابعة . وجه آخر : إبتسامة أخرى تطل عليه من باطن الليل . تماماً ، كما أراك في ذاكراتي : سارح الفكر ، وكأنك تلاحق الغيوم . عرفه . كلما قابله ، على فترات متباعدة ، جابهه بحقيقة مزعجة ، وكأنما يريد له أن لا ينساه . لم يرد أن يجيبه ، فإن الدخول في نقاش مع السيد موفق ، وفي ليلة ظلماء كهذه يزرع حوله

الأشباح . ولكن أراد أن يجرب لسانه . فقد تصور أنه لم يستخدمه منذ دهر ، وخشي أن يكون قد التصق بحلقه إلى الأبد ، خرج صوته جافاً جارحاً .

- لا فكر ولا ملاحقة في هذه السماء الصافية المنجمة .

- ما هو إذاً ؟

- « شيء خصصت به من بينهم وحدي » .

- هذا هو التجلي إذاً .

- لا تحسبه بحسابك الخاص .

- نوع من التفكير الرامي .

- لا ، أبداً . لا فكر ، ولا تفكير .

- لماذا تنكر التفكير ، يا عزيزي معروف ؟

- الأشياء الذاتية لا تسمى تفكيراً . شيء تفرزه النفس كالدموع كالضحك والبكاء ، كوجع المعدة .

- كل شيء نتيجة تفكير .

- إنزعج السيد معروف ، فقال في فلتته لسان :

- لا ، لا أنا أقبل بهذا التفكير ولا أُمي .

وارتدت هذه النكتة الباردة إلى نفسه كالنصل فارتبك . أمه هنا أيضاً ! آسف ، يا سيد موفق ، آسف . تداعيات سابقة . وخلال ذلك كان موفق محاصره :

- صمتك تفكير ، إنكارك تفكير .

- سيد موفق ، لا تضعني في رحي تفكيرك . أنا ضد التفكير ، إنسان يعيش بلا تفكير .

- ولكنك في الماضي ، كنت تريد أن تعرف كيف يعمل العقل البشري .

- لم تعد لي هذه الرغبة ، ولا أية رغبة أخرى غيرها .
- لماذا ، يا سيد معروف ؟
- لأن الإنسان إذا كان ... كان معجوناً بآلام كثيرة ، فلماذا يضيف إليها وجع الرأس من جراء تفكير لا يجدي ؟
- التفكير يضعك في موضعك الصحيح كإنسان .
- عندما يتجاوز الإنسان الأربعين يخاف من التفكير ، ويشغل بالاحلام .
- الأحلام تفكير فوق مستوى الواقع .. ولكنها مفيدة بالقدر الذي لا يعرفه إلاّ القلائل من المفكرين . التفكير يحيط بك من كل الجوانب .
- وما فائدة التفكير ؟ قل لي من فضلك .
- للوصول إلى ما هو أحسن .
- لم أعد أحفل بما هو أحسن .. أو لا أرى أفقاً لما هو أحسن ..
- لا ، سيد معروف . أنت متشائم
- كلمة تقال .
- قل ، يا سيد معروف ، وأنت المتبحّر في اللغة : ما معنى كلمة إبليس ؟
- لا أدري . إبليس هو إبليس وكفى .
- لها معنى بليغ جداً . سمى إبليس ، لأن الله أبلسه . أي أيأسه من الخير ...
- أسقط في يد السيد معروف . كان يرى أسناناً لامعة في الظلام .
- هل يضحك موفق منه ؟
- لا أغير من الأمر شيئاً . إذا أضفت إلى أبالسة الله واحداً .
- فعددهم في الدنيا أكثر من اللازم .

- هذا حكم ، هذا تفكير . أنت مفكر ، ولكنك تخاف من البوح بتفكيرك .
- نفس النعمة القديمة . أما تزال على تفكيرك القديم ، يا سيد موفق؟
- نعم ، أنا على نفس عقيدتي .
- لا بد أن لك اطفالاً الآن .
- جازف السيد معروف في أن يستفسر رغم ما في ذلك من إثارة لماضٍ قديم ، يوجعه أن يسترجعه .
- أربعة . وهل يغير الإنسان إيمانه ، إذا رزق بأطفال؟
- نفس الحصار القديم سيضربه موفق عليه . وكأن شيئاً لم يحدث .
- وجد السيد معروف نفسه يقول :
- الله يحفظهم لك - ثم أراد التخلص بسرعة من لقاء محرج فسأل - كم الساعة الآن؟
- أما زلت مضرباً عن الساعة؟
- الشمس تحدد لي المواقيت .
- ولم يقل له اضطرتت إلى إدخال الساعة في البيت من أجل أمي . لن يذكر أمه مرة أخرى ، أمام موفق .
- وإذا كانت الدنيا غائمة؟
- أرى الشمس من خلال الغيوم .
- أنت تفكر في الشمس إذاً .
- في غروبها .
- ولماذا في غروبها . أليس ذلك دليلاً آخر على تشاؤمك .
- لأنني لا أرى شروقها . وهذه قضية خصوصية بحت .
- أما أنا فأراها كل فجر .

- ربما لأنك الآن تسكن حياً يرى الشمس . قلت لك : هذه مسألة خصوصية بحث .

- لا بل أراها في تفكيري ، تملأ الآفاق .

- إذاً أنت أنقصت أبالسة الله واحداً ، وأنا زدتهم واحداً ..
تعادل .

- لا ، سيد معروف . لا تعادل بين الخير والشر .. لا بد أن تغير رأيك .

- نعم الموضوع تحويل تفكير إذاً ؟

أفلتت هذه الجملة من لسان السيد معروف ، فأمسك بها موفق .

- أحسنت ، لا بد أن تنحاز إلى جانب الخير ..

- أنا مع الخير قلبياً ، على أن لا يكلفني أكثر من طاقتي ..

- الكادح لا يفقد إلا أغلاله .

- كلام يقال ، يا سيد موفق . أرجو لك السلامة .

- ولك أيضاً يا سيد معروف .

- في الحذر السلامة ، سيد موفق .

وتصافحا في الظلام . إبتعد السيد معروف عنه بسرعة . لقاء مع

موفق غير موفق . بدا وكأن دهرأ يفصله الآن عن سلسلة أفكاره

السابقة . أفكار ؟ لا ، أحلام . لا ، مجرد هذيان . الموضوع تحويل

تفكير . نسبة لا يعرفها إلا المفكرون . خزعلات . إسكت . إنس

التفكير . سأصرخ ملء فمي : إنس التفكير . الموضوع تحويل تفكير .

ما هذه المشكلة الجديدة ، يا سيد معروف ؟ كأن المشاكل لا تكفيك ،

يا سيد معروف . وجه يطل عليك ملفعاً بالغروب ، مبتسماً ابتسامة

غامضة ؟ غامضة ؟ لا ، واضحة . فيها فكرة . فكرة السيد موفق .

إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . إسكت . إنس الموضوع . لعنة

على أبي التفكير، الحقير بن الحقير.

بدأت أوكار الليل تقذف ما في أحشائها. الأصوات جارحة. والروائح حادة. وأنفاس النهر مضمخة بزفر السمك. والشمس تدب هناك، وراء سجن الليل المتكاثفة، كل شيء تجاوز حده ينقلب إلى ضده. أم كيف كان يقول موفق في الزمان الأول؟ الكيفية تنقلب إلى نوعية. لا. الكمية تنقلب إلى نوعية. كم. كيف. نوع. جوع. لا أدري. المهم انقلاب... مفاجيء.. ضروري.. خطير.. إذا برز لك وجه حلو فجأة.. ابتسم لك في حنايا الطريق. التقت عيناه بعينيك. داعب خيالك بابتسامة. أين كان في الماضي؟ كمية تحولت إلى نوعية. أحلام تحولت إلى واقع.. جوع تحول إلى مفص في المعدة. أوف. لعنة الله عليك يا معدي. لولاك لخرجت نشوان من وكر، مترعاً بالخمر وقدر هائل من الأوهام لا يعرفه إلا كبار المجانين. إصبري، يا معدة، أرجوك. ليس لي في الحياة غيرك، وغير أم عجوز توشك على العمى التام، وأختين تجاوزتا سن الزواج المسموح به في تقاليد لم أخط أنا حرفاً منها، حتى في عز شبابي، أيام كنت أحرر الكتب الرسمية محاولاً أن أشذ بها من رواسب عثمانية وأنفخ فيها نفثة من روح. أوه، كم يتعذب النين مجنون أوطانهم في تفاصيل زائدة عن اللزوم! كأن الغروب زائد عن اللزوم. الإبتسامة الحلوة زائدة عن اللزوم. رائحة الليل الوغرة زائدة عن اللزوم. الصراير زائدة عن اللزوم. ودفع باب بيته ودخل.

مصباح شاحب في الطرمة. للنوم والكسل رائحة عنكبوتية. لزوجة طعام ثقيل، تقلصت له المعدة.

- مرهونة، أهذا معروف جاء؟
- لأمه حاسة مرهفة تعويضاً لبصر ذاهب.

- نعم ، أنا ، يوم .
- إستدار إلى اليسار فرآها على سريرها مكورة محدودة ، باسطة الذراعين إلى الرجلين المدورتين ، ملفوفة الرأس والرقبة بفضة ربما تحسب لونها الأبيض رمادياً ، فقدت الآن نعمة الإحساس بالألوان . سيّان عندها الليل والنهار ، الصبح والمساء . ومن أجل ذلك أدخل الساعة إلى البيت .
- تأخرت ! جعلتني في الوسواس .
- جلس على حافة سريرها :
- لست طفلاً ، يا أمي .
- خفت عليك . طار النوم من عيني . قلت لنفسي : حصل له شيء .
- لم يحصل ، ولن يحصل .
- وعضّ على شفتيه لأنه كذب . وقسا بعضته لأنه يعرف أن أمه لن تراه يفعل ذلك . أين ذهب ، إذن ، تلك الابتسامة الحلوة ، والعينان الحدوبتان ؟ وهل من المعقول أنّ أمه تفهم لحظة التجلي تلك ؟ ستقول إن ابنها الأوحـد تحبّل . أو أنه يركض وراء سراب ، ليتركهن وحدهن .
- كنت في القهوة ؟
- كنت أتمشى على شاطئ النهر .
- في الليل ؟
- يخلو التمشي .
- تهدت الأم عن عجز وخيبة . وغطست في بئر صمتها . منذ دهر لم تغادر دارها . ربما نسيت أن في الدنيا نهاراً ، وغروباً ، وابتسامة حلوة تسبح في ألق الغروب . وأحس بأحزانها الصامتة القنوط . مسّ يدها . كانت حارة مرطاء . أوه ، يا أمي ، ليتني

استطعت أن أزيح عن عينيك الماء الأسود لتري قسبات الأشياء .
ولكن صدق من قال : الأطفال وكبار السن يحشون الموت أكثر من
الآخرين .

- لم تلتق بأحد؟

- لم ألتق بأحد ، وبمن ألتقي؟

وأفجعت كذبتة الثانية ، كأنما تخلى ، في لحظة من حب الذات ،
عن شيء ليس من السهل التخلي عنه . من الكفر أن يقول لها إنه
التقى بموفق . فإن هذا الاسم مرتبط بماضٍ ما يزال معلقاً بين الخطأ
والصواب ، وإثارته تثير شجناً في القلوب . ستصاب بنوبة قلبية .
إذا ذكر اسمه لها ، سيرتفع ضغط دمها المرتفع أصلاً . وتعال ، يا
معروف ، خذها للطبيب . والصمت أيضاً مقلق ولئيم . والحسرة
تضرم ناراً في داخل القلب . نهض السيد معروف من سرير أمه .
- مرهونة ، صبي لي شيئاً أسيدُ به معنق .

- أما زالت هائجة عليك؟

وكذب كذبة ذكّرتة بوجع معدته المزمن ، والوجع الذي يبدو له
أحياناً وكأنما ولد معه ، وكان ألصق به من جلده .
في الطارمة همس لمرهونة حين جاءت له بصينية الزاد :

- محبوبة نائمة؟

- لاء عند الجيران .

- في مثل هذا الوقت؟ تعليلة رمضان؟

- ذاهبة لانادياها .

- لا ، لا تذهبي .

لا يريد أن يراها . موفق يملأ سماء ذهنه . نافورة حنق تنبع من

مكان خفي في أعماقه ، جعلت منظر الطعام كريهاً عليه . تقلبت منه أحشأؤه ، وتقلص حلقومه .

- أوف! هل تتصورين أن معدتي تقبل كل هذا الدهن؟

- أين هو الدهن؟

- كل هذا الطوفان من الدهن لا تريه؟ أعطني قطعة جبن أتبلغ

بها . أطرقني لي طاسة لبن . لا أريد أن أقضي الليل ساهراً مع معدة

تئن .

- حرام عليّ إذا كنت وضعت ملعقة دهن ولكن ماذا أقول

للقصاين؟ جاء صوت هرم من الغرفة :

- مرهونة ، ما هذه المناكدة؟

- لا شيء ، يوم . نامي نومة العافية .

(لا تدعيني آخذك للطبيب)

جاءت محبوبة ، وهو يؤدم الخبز باللبن المطروق . نكس رأسه . لا

يريد أن يراها اليوم . سيتطابق الوجهان في خياله . من الممكن أن

يكون لها الآن أربعة أطفال ، يسمونه خالي معروف . لا يريد أن

ينبش تاريخاً لا يحسن أن ينبش ، ولا يجوز أن ينبش . ليدعه راقداً

في ذاكرة كل إنسان منهم ، على طريقته الخاصة . ميتاً أو حياً ،

مشوهاً أو سليماً . ودعها تنفس عن نفسها بزيارات مطولة إلى بيت

الجيران . للتلفزيون سحر لمن اختزلت حياته ، وحشرت بين أربعة

جدران . آخر موجة للترفيه عن الاسرى . سقط اللبن المملح في

معدته بارداً منعشاً ، لذيد المذاق . وامتزج بعصاراتها المتقلبة

الأطوار المنحرفة أبداً . مغص محتمل ، خفيف على المعدة ليس مثل

كذباته اليوم . والرأس يضح بالصور . ومرهونة جالسة في ركن تنظر

إليه بعينين ناعستين ، تتوسلان إليه أن ينهض . لا بد أن عمل

اليوم ، أو كسل اليوم قد أتعبها . لم نفسه سريعاً ، ودخل إلى حجرته . وكان هو الآخر يحس بتعب لذيد ، بثقل في المفاصل يغري بالإسترخاء . كأنما عاد من سفر بعيد . . من حج . . حج مبرور ، وسعي مشكور ، وتجارة لا تبور . ولا ح له الوجه المدور من وراء سبعة بحور ، ابتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان تستقبله على أحد الشواطئ بعد عودته من رحلة العمل اليومي المضنية مثقل الجفون بغبار الكاربون غير المنظور . كيف رأته ، وهي تطل عليه من عليائها شمساً تؤوب إلى خدرها؟ تنورتها من أذرع ، وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظر عال . ولأول مرة ، يرى في الليل ، وجهه في مرآته العتيقة المحكوكة الحوافي ، وصار يردد مع نفسه لست أعور ، ولا أحول ، ولا أقرع ، ولا أحليج ، ولا أشدق ، ولا أشرم ، ولا أفطس ، ولا فاسد الأسنان . ودع الرقبة جانباً . خلع القميص فلاحت طويلة مثل رقبة الزرافة . قبحها الله من رقبة . والرأس في آخرها يقبع صغيراً ، والوجه قاسي التقاطيع ، كدر البشرة مجذب ، محروق من شواظ شمس تحفف الحضرة وتستنزف النضارة بسرعة . عاف المرأة ، وارتمى على السرير . لم تره بهذا الشكل ، وإلاً للاح الاشمئزاز في عينيها ، ولتطيرت مثل تطير ابن الرومي من جاره الأحدث . كان وجهها فياضاً بالحنان ، وكأنما تعرفه منذ زمان . ربما رأته غير مرة ، في طرق الحياة المزدحمة . لم يكن في عينيها ذهول المفاجأة ، ولا سهوم الاستغراب . كأنما تركته لشأن من شؤونها ، وعادت إليه لتصحبه وتأخذه إلى خدرها الغروي وهو أيضاً لم يفاجأ . لم تعتره رعدة ، و تعرق خجلاً واستحياء . لكنه سحر من الالفة والقرب . من دفقة الحنان الذي كان يفيض من وجهها ، من حلاوة الشهد التي كانت تلمع في ابتسامة شفيتها . كاد يلحق بها .

يناديهـا . أنا أعرفها ، يا ناس . أعرفها منذ زمان ، نصيب الضائع رأيتـه في الزحام . ربما كان يلاحقني ، يتلصص عليّ ، يسير ورائي كظلي ، طوال تلك المدة ، عشر ، عشرين سنة كان يتعقب خطاي ، ويشهد الأربعين وقد بلغتـها ، والخمسين ، وأخاف الدنو منها . . أوه ، الله أكبر . شاب بالخمسين . كيف مرت تلك اللحظة خطفاً ؟ لماذا لم أرد الابتسامة بابتسامة ، وأسأني لم يتأكلها النيكوتين ؟ لماذا لم أفهمها شيئاً ، بغمزة ، بإشارة ، بتمتمة شفاء ؟ لماذا لم أتكم معها ؟ أهلاً ، وسهلاً ، تشرفنا . أنا هنا ، في الانتظار ، كل غروب شمس . ربما أنت تحبين الغروب مثلي ؟ أنظري إليه : سحابة وردية طائرة . هل تحبين أن تحلقي مثلي ، فوق الأرضين ؟ على أشعة الغروب ، نطوي الآفاق ، ونجتاز الوديان والبحار ، ونتسلق الجبال ؟ لا ؟ على كل حال ، أهلاً ، وسهلاً . خادمك له نزوات ، منذ الصغر صاحب شطحات . لا ، لست متزوجاً . قسمة ونصيب . على كل حال ، التعارف يكفي . نلتقي ساعة الغروب . أشم فيك رائحة الغروب . رائحة البنفسج . ما هي رائحة البنفسج ؟ لا تدخل نفسك في أمور لا تعرفها ، يا سيد معروف . سر على ما كنت تسير عليه دائماً . لا تعرف ما لا تعرفه ، ولا تتدخل فيما لا يجوز التدخل فيه . المهم أن تتعرف عليها ، وتتعرف عليك . نعم . قسمة ونصيب . أم عجوز ، وأختان عانستان . لا . قسمة ونصيب . سنحت الفرصة للصغرى ، فمئنتها أُمي . ركبت رأسها . وقالت : لا ! ومرهونة تبقى عازبة ؟ لم تقل ومعروف يبقى عازباً . بل قالت واختك الكبيرة تبقى عازبة ؟ ربما كانت تتنبأ بأن ألقاك ؟ تقرأ في اللوح المحفوظ ؟ على كل حال ، أهلاً وسهلاً . ليغمرنا الغروب بأشعته الحنون ، ويباركننا ، ويبارك لقاءنا . دقت الساعة في الطارمة دقتين . والنوم بعيد بُعد الغروب عني

الآن. زن.. زن.. لا تفكر، يا سيد معروف. أغلق دكان تفكيرك.. أو حوِّله إلى شيء يجلب النوم إلى جفنيك. لا تفكر. الموضوع: تحويل تفكير.. كتابنا، وكتابكم. وشوشة الساعة في الأذن. كم هي ثقيلة ومزعجة هذه الساعة. إشتريتها من أجل أُمِّي، التي لم تعد ترى الغروب والشروق. تسمع دقاتها المخربشة، فتقيس عليها ما تبقى لها من ساعات. كانت دقاتها تغيظني، وتوقظني من غفوة عسلية.. دائماً تأتي غير مدعوة، في وقت غير مناسب. والليلة سأظل أسمع دقاتها.. أنتظرها انتظاراً حتى الصباح. أُمَاه، هل أنتِ مستيقظة مثلي؟ هل سمعت دقتيها الاثنتين؟ الليلة أسمعها معك، وكأنها دقات قلبك المخرخش، أسمع نبض حياتك الحزينة المترملة الحافلة بالآسفي والكدح. رغينا الخبز لم أنسهما. ربما نسيتهما أنت، من بين أشياء كثيرة يزدحم بها طريق عمرك. ولكنني لم أنسهما. ذكريات الطفولة كالنقش في الحجر. إضطرار، تيم. وكان لك ثلاثة أفواه يجب أن تلقمها بشيء ما، بخبز مسروق. أو مشترى بالكدح والعرق. رغيف خبز محمص، مبطط لذيد، مدور مثل وجه الحبيبة التي مرت بي اليوم، في غفلة من الزمن، حمراء، قوراء، بسامة الثغر، لمياء. ماذا يقول مميز التحرير عن هذه الكلمات؟ كتابنا وكتابكم.. إستناداً إلى ما مرَّ بي اليوم، سأظل مسهداً حتى الصباح. سيثطب الأستاذ عبد الرحيم على «مسهد» ويكتب «ساهر». أو ربما «أرق». أرق على أرق. مصيبة وراء مصيبة. والمصيبة أنني لم أر قوامها. أظنها طويلة مثلي، غصن بان، ولكنها ليست نضوا مثلي. نضاً ينضو نضواً. عامرة الصدر بالإيمان أو بغيره.. رجلة أسمر مقبلها، سبحلة أبيض مجرّدها. ما رأيك يا أستاذ عبد الرحيم، يا عاذل العاشقين دع فئة أضلّها الله كيف

ترشدها؟ ليس يحبيك الملام في هم ، أقربها منك أبعدا عنك .. آه ،
يا ميمزي! بئس الليالي سهرت من طربي شوقاً إلى من يبيت يرقدها ،
قرير العين ، لا يثقل على فؤاده هم . إسكت يا سيد معروف ،
إسكت . لا تتكلم في النوم . عادة سيئة تجعل سريك فارغاً حتى
بقية العمر . دقت الساعة ثلاث دقائق . دزن .. دزن .. دزن! سهران
بين تفكير وتحويله . الموضوع تحويل تفكير . كتابنا وكتابكم سأظل
أكرّرها حتى أنام . كتابنا وكتابكم ، كتابنا وكتابكم ، كتابنا وكتابكم .
أريد أن أنام .. أنام .. أنام .. في الحمام . خفيف . طائر . يا ريتني
طير ، وأطير حوائيك . أين أنت يا صاحبة الوجه البسام والعينين
الحدوبتين؟ بئس الليالي .. من يدري؟ ربما هي أيضاً تسهر عن
طرب . والطرب من معاني الاضداد ، يا أستاذ عبد الرحيم .
الإهتزاز من فرح أو ترح .. المهم الإهتزاز في الطرب . الروح تحف
فتهتز . لُم الليالي التي أخنت على جدتي ، برقة الحال ، واعذرني ولا
تم .. لا ملام بعد الساعة الثالثة ليلاً ، والغروب على الاطلسي
يزحف زحفاً لا يقهر مخلفاً طنجه وراءه ، وجزر الكناري . البحر
من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم ، والله ، إلا السهر حتى
الصباح .. أنتم في هذا الليل البهيم أضيع من الايتام في مأدبة اللثام .
لا ينجيكم منه معقل وعلي ، ولا مفازة سبع ، ولا قعر بحر ، ولا رأس
طود .. ولا أية حماية أخرى من تلك التي عدّها السيد الجاحظ .
والسكوت أفضل في مثل هذه الحال ، لا لأنه من ذهب ، بل لأنه
يقطع دابر التفكير ، ويسلم إلى النوم العسير حتى الصباح المنير ،
ولله ، بعد ذلك التدبير أو حسن التدبير .. دزن ، دزن ، دزن . سعلت
أمي بعدها معلنة عن قلقها في الساعة الثالثة ليلاً ، وفي الساعة
الثامنة صباحاً سيكون السيد معروف مدحوساً في أحد الباصات

العامّة . دحس ، يدحس ، فهو مدحوس . الداحس والغبراء . المهم أن تكف عن هذا التفكير ، يا سيد معروف . الموضوع .. كتابنا وكتابكم . لو أعرف عنوانها لأرسلت لها كتاباً . الموضوع : طلب يد . إشتاداً إلى تلك الإبتسامة الحلوة ، والعينين الحدوبتين يتشرف المدعو معروف الدواليبي ، الموظف في قلم التحرير ، والمنسب حالياً للاشتغال ككاتب طابعة ، والمرقى مستقبلاً إلى أن يصبح مجنوناً .. والله سأصير مجنوناً إذا لم تغمض عيني .. بس ، انتهى . إرفع الكتاب من الآلة الكاتبة ومرّقه . أجلّ مشاريعك لليوم التالي . وتّم ولا تُشغل نفسك بتفكير وتحويل تفكير .. فإن ذلك شيء طارئ في حياتك أثارته ابتسامة حلوة وعينان حدوبتان . أوه . عدنا إلى الإبتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين .. أوه ، كفى . ما خلافاك السابق مع السيد موفق إلاّ على أنه كان يجرك إلى التفكير . لا تفكير ولا بعير ، ولا موظف ولا مدير ، حتى الصباح على أقل تقدير .. فاه .. لطيف ، بدأت أتثاءب . ثثاءب عمر إذ ثثاءب خالد .. كفى ، فيما بعد ، يا سيد أبا العلاء .. سنتحقق من حصول العدوى . سنتفاهم . الموضوع : حسن تفاهم . أين حُسن التفاهم هذا .. مع النوم . كفى . يبس حلقي . لو أشرب جرعة ماء . وبعدها سأنام . تعبان ، وجسمي ثقيل ، ورأسي مثل غرفة الآلات الطابعة .. سأعطي رأسي باللحاف ، لعل السيد المحترم ثاني اوكسيد الكربون يهدى سنة من النوم . فاه ، فاه .. ثثاءب عمر إذ ثثاءب . بدأت أرى الصور .. هذا شيء لطيف .. رؤية الصور تدخلك إلى دنيا الاحلام . صور .. صور .. هل أنا أحلم ؟

دزن ، دزن .. دزن .

سمعها السيد معروف ما بين السبع مرات والثاني . تضعضع
السريـر من هبته القويـة . الشغل . الدائرة . قدح الشاي لأبلّ الريق .
وصعد سلم الدائرة مغمض العينين تقريباً ، يكاد يصطدم بالناس أو
الجدران ، موزعاً « صباح الخير » بكثرة للتحية والاعتذار وإزالة
الكلفة ، أو بعضها جاء طائشاً بلا عنوان ، فلم يرد عليه أحد . صباح
الخير في لهاث الدرجات الأخيرة ، وكأنه صعد الملوية .
كان فراش المدير أمامه ، في الصالة المربعة في الطابق الثاني .
سلم عليه .

- صباح النور ، أغاتي . اليوم متأخر ، يا سيد معروف .
- نعم .. بضع دقائق .. أخذني نوم الصبح .
- غداً ينعقد اجتماع لجنة النشر لدى سيادة المدير ، هل ستحضره ،
يا سيد معروف ؟
- لا ، أعفوني منها .. منذ زمان .. سنة .
وكانه لا يعرف جبّاراً الأجلح هذا ، فراش المدير الذي يعادل
أربعة من كتاب الطابعة . ولكن إنا لله ، وإنا إليه راجعون . دفع
باب غرفته إلى اليسار .

- صباح الخير !
ردت بعض الاصوات ، منها صوت عنيد :
- صباح التأخير .
كان الأربعة كاملي النصاب في الغرفة .
- أرجو المعذرة .. هذه باصاتنا ، وأنتم تعرفونها ...
- نحن نعرفك أكثر .
- شكراً على المعرفة .

هل يقول لهم كيف قضى ليلة نابغية؟ لا بأس . ليصمت . إنا لله

وإننا إليه راجعون . كما لا بأس بهذه النفاضة التي يتركونها كل صباح على منضدته ، لإغاظته وتسميم صباحه .

- نفاضتكم ، يا سادة .

- نرجو المعذرة نسيناها على مكتبك ، حين نقلناها إليه لتنظف مكاتبنا .

الحجة نفسها . لا بأس . كذابون أشرون . والمهم أن لا يضحكوا

ضحكتهم الجماعية الساخرة ، حين ينقلها إلى إحدى مناضدهم .

لم يضحكوا حين رفعها ، ولكن أصابعه ارتجفت من أرقق البارحة . فضحكوا ، حين وضعها على المنضدة في ضيق ، وكأنما يتخلص من حشرة ميتة .

كۆم المحرر ضبة أوراق على منضدته قائلاً : « أنت تهتم بالخطوط » . وبدأت الآلات تدق ، مثل حوافر خيل مخبولة . ثلاث آلات جديدة ، ورابعة قديمة كان من الممكن أن تنقل للإستيداع . ولكن ما تزال فيها « روح » والروح من عند ربي . والسيد معروف صبور ، قنوع ، يخاف الله وأولي الأمر . أُعطي له ليتدرب عليها منذ أن نقل من محرر إلى كاتب طابعة ، بنفس الراتب الاسمي في الحقيقة ، فاحتفظ بها حريصاً عليها ، وكأنها آخر معقل يحتتمي به ، في هذه الدائرة التي استقر مقامه فيها منذ عشرة أعوام .

قال المحرر السيد هاشم :

- هذا تعيين آخر . بدأ الجنس اللطيف يغزو دائرتنا .

قال السيد عبد اللطيف كاتب الطابعة المخضرم :

- أليست هذه نعمة . أن يصبح الإنسان على وجه صبح ؟

وجه صبح ، وجه صبح ، إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان .

- عبد اللطيف متفائل . ليست كل من لبست فستاناً ذات وجه صبح .

- كل اللواتي يشتغلن في قسم المحاسبة ينطبق عليهن هذا الوصف .
- واحدة منهن تصلح لأن تكون زوجة للسيد معروف .
- فكرة صائبة .
- الزواج حق من حقوق السيد معروف . هذا مسوغ قانونياً .
- لها عيون واسعة على وجهٍ تضاريسي .
- وشعر كالليل البهيم ، وجسم دسم وكأنها تسبح كل يوم بالحليب .
- ما رأيك يا سيد معروف ؟
- قال السيد معروف كلمته الحاسمة :
- لست محتاجاً .
- يعني ، مكثف ذاتياً ؟
- فسرّ ، كما يحلو لك التفسير .
- وإلى متى يعيش الإنسان على الإكتفاء الذاتي .
- كل إنسان يعيش على ما في نفسه .
- تعيش على ابتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين . لست أعور ، ولا أحول ، ولا أعرج ، ولا مشقوق الشفتين ، حتى ولا أخشم ، مثل عبد الرحمن الداخل . صحيح أنا مثله خفيف العارضين نحيل ، طويل الرقبة بشكل غير مقبول . أوه ، اسكت ، يا سيد معروف ، اسكت .
- كتابنا وكتابكم . الموضوع تحويل تفكير .
- جاءه من خارج مختبر تفكيره :
- تريد أن نخل عقدة السيد معروف . وهو يتمسك بها .
- فردّ عليهم من داخل مختبر التفكير : عقد الله لسانكم . ليس لكم غير هذا اللسان الفالت . كلمات فارغة . حياتكم مليئة بالكلمات الفارغة . هل تتمتعم بالغروب مرة واحدة في حياتكم ؟ هل طار خيالكم مع الشمس تلاحقونها إلى آخر الدنيا ؟ طنجة . سبتة . سرقسطة .

باجة. ويبحرون فراراً من الليل. البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، في شبه جزيرة الأندلس، المليئة بالخور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدرّ والمرجان. الله ينصر السلطان. أسكت، حوّل تفكيرك. كتابنا وكتابكم. الموضوع: تحويل تفكير. وبوغت السيد معروف بسقوط جمع قوي على منضدة اهتزت له أركان المنضدة. وعاد السيد معروف إلى الشرق الكئيب. كانت الضربة صادرة من مكتب المحرر السيد هاشم.

- خمسين مرة، مائة مرة، مليون مرة. قلت لك، يا سيد معروف لا تغير في الكتب الرسمية. هذا ممنوع قانونياً.

قال السيد معروف بصوت صادر من غور عميق:

- وهل وجدت تزويراً؟

- أسوأ. هذه تشكل جنحة.

- ولكن المثني يرفع بالآلف والنون، يا سيد هاشم.. شعبتان، والله العظيم، شعبتان..

- وليكن. لكن ليس من وظيفتك أن تصلح. أنت كاتب طابعة، ولست محرراً. كان عليك أن تستشيرني

- هناك أشياء نقوم بها دون حاجة إلى استشارة، مثل إمطة الأذى عن الطريق. لقد أمر الله بها.

ضحكوا. وانكب السيد معروف على طابعته، وكتابنا وكتابكم. يضحكون على أنفسهم، هؤلاء الفتية المناكيد. وأصبر السيد هاشم حكمه القانوني:

- ستجد نفسك يوماً تحت طائلة القانون.

غضب السيد معروف. رفع رأسه وأسبل يديه المتعبتين.

- لا تقرر رأسي بالقانون ، يا سيد هاشم . أنا أيضاً درست القانون .
- أين درسته؟ في أية حلقة؟
- في حلقة الدرويش الزمان . لا تسخر ، يا سيد هاشم . في كلية الحقوق ، مثلك .. عندما أنهيت الدراسة الثانوية ، دخلت كلية الحقوق ، في القسم النهاري ، وليس في القسم المسائي ، مثل حضرتك .
- وسقطت في الإمتحان ، ولم تكمل؟ إستعصت عليك المجلة ، الشريعة ، التاريخ الروماني؟
- لا تعدد كل ذلك . أنا أعرف هذه المواضيع .
- ولماذا لم تكمل ، لماذا لم تتخرج محامياً ، حقوقياً؟
- نصيب ، حظ أهوج ، يا سيد هاشم . عندما دخلت قاعة الدراسة الضخمة ، لأول مرة ، رأيت نفسي ، وكأني في قاعة محكمة ، أو قاعة مسرح .. يوم الحشر . أرجو أن تفهم نفسية طالب منطوي تعود أن يزوي في صف من خمسة وثلاثين طالباً ، وإذا به يجد نفسه فجأة ، وسط أكثر من مائة طالب ، أصغرهم أكبر سنّاً منه .
- فخاف .
- نعم ، خفت مع الأسف .. أو بالأحرى ، خجلت .
- ضحكوا دون خجل .
- كانت لحظة ضعف .. لحظة ضعف .
- جعلتك تترك الدراسة .
- ليست هي وحدها . هناك أسباب أخرى ، يا سيد هاشم ، لست مستعداً للخوض فيها .
- وتنهد السيد معروف . الصمت مغيظ مثل ضحكة مكتومة .
- ألسنتهم الساكنة تتهياً لفارة جديدة عليه . تحاشى النظر إلى وجوههم . وأنكب على طابعته . كتابنا وكتابتكم . الموضوع تحويل

تفكير. إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . والغروب غلالة وردية
تؤطر وجهها ، ويلاً خياله . لحظة ضعف وانهار . لست أعور ولا
أحول ولا أعرج ولا أعضب ولا أجرب . وليس لي أية عاهة من
العاهات المشوهة للوجه البشري . خيال . تفكير . كتابنا وكتابكم .
الموضوع : تحويل تفكير . مَنْ يَكُ ذا بت فهذا بقي ، مقيظ ، مصيّف ،
مشتي .

- إذا ، فالقضية لم تكن تتعلق بالذكاء .
- أية قضية؟
- قضية تركك لكلية الحقوق .
- حدّجه السيد معروف بنظرة حادة .
- تأكد ، يا سيد هاشم . كنت الأول في صفّي . مستوى ذكائي ، على
العموم ، أعلى من المتوسط .
- هل قسته؟
- بكل المقاييس .
- كم سنتيمتراً؟ كم حقة؟
- الذكاء كالخيال مادة أثيرية .
- ضحكوا . ذلك أهون من صمتهم البارد المغيظ . وقال السيد
عبد اللطيف :

- لهذا يقولون يلتقط الفكرة ، وهي طائفة .
- عاد السيد معروف يؤكد مفهومه الخاص للذكاء :
- الذكاء موجات غير مرئية تنفذ إلى الأعماق .
- إذاعة سرية تلتقط ما يجري في بال الناس .
- لا نعرف بماذا يفكر السيد معروف الآن . يلتقط أفكارنا براديو
ذكائه .

- أحسنت . جهاز التقاط سري .
- يعني خطر ..
- خطر ، بالتأكيد . الأذكاء خطرون دائماً ، يحكون شيئاً خيفاً في أدمغتهم .
- جهاز التقاطي موجه إلى داخل نفسي .
- وماذا ترى هناك؟؟
- إبتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين .
- يا ساتر ، أستر!
- ألم أقل لكم إنه مكتفٍ ذاتياً؟
- وظلوا يثرثرون خارج أفق خياله .. حيث كانت الإبتسامة الحلوة والعينان الحدوبتان تسبح في غمامة الغروب الوردية ، بعيداً عن كتابكم المؤرخ ، والموضوع تحويل تفكير . وحين دنا من مكتب السيد هاشم ليقدم له دفعة ثانية من الكتب المطبوعة ، رأى في عيني المحرر ابتسامة من نوع آخر ، غريبة جداً ، ابتسامة مفترسة محت من خياله ، للحظة واحدة ، ابتسامة البارحة .
- هل من كتب أخرى ، يا سيد هاشم؟ (همّ أن يقول هل من ابتسامة أخرى؟) .
- الكتب لا تنتهي .. سأتحفك بها ، بعد أن أعود من اجتماع قصير في غرفة المميز .
- وفي الصمت الخامل ، بعد خروج السيد هاشم ، قال صوت مطوط ، وهو صوت السيد كاظم :
- نحن نجور على السيد معروف كثيراً .
- مَنْ حَبَّكَ لاشاك .
- قال صوت السيد مطر :

- المهم أن لا ندعه يدخل في الصمت .

- إبتسم ، يا سيد معروف ، ابتسم .

- ما دامت أسنانك سليمة .

الإبتسامة تملأ خيالي . وأنا لست أعور ولا أحول ولا بأسنان اصطناعية . ولو أن الضرب على الآلة الطابعة يشنج أصابعي ، ويكاد يقصفها . توقف ، ونظر إليها . أعواد نحيلة ، ملطخة دائماً ، جففها مسحوق الكربون . كيف تُصافح كفاً رَخَصَةً على حد تعبير السيد امرئ القيس . ذهب إلى ملك الروم يحاول ملكاً ، أو يموت فيعذر . فسات ولم يعذر . فَوَّت الفرصة ، مثلما فَوَّتْها أنا . لو استوقفتها ، ونظقت بضع كلمات . أُحاول تكوين علاقة . سأموت ولن أعذر .. فاعذربي ولا تلمني .. لا لوم .. لا خيل عندك تهديها ولا مال . وقال الشطر الأخير بهمس أشبه بالكلام المسموع : فليسعد النطق إن لم يُسْعِد الحال . ونظرت العيون إليه ، ثم تحولت إلى الباب ، حين دخل السيد هاشم يحمل إضبارة زرقاء . وضعها على منضدته ، واسترخى على مقعده .

- نبأ سار .

- زيادة؟ علاوة؟؟

- لا تحمل أحلاماً صبيانية ، يا سيد كاظم .

- ماذا إذا؟

- الزيادة ، ستكون بعد ذلك . فلا تتعجلوا الأمور . المطلوب منا الآن أن نقوم بفعاليات .

صمتت آخر طابعة .. الطابعة العجوز .

سأل السيد عبد اللطيف ، وهو أحد أقرباء السيد هاشم :

- أي نوع من الفعاليات؟

- كل أنواع الفعاليات .. فرقة لكرة القدم ، للسلة ، للتمثيل .. المهم حشد المواهب وتجميعها في إطار عام .

قال السيد كاظم .

- وفرقة للإنشاد؟

- وهذه أيضاً .

قال السيد مطر :

- هذه الأعمال ضمن الراتب ، أم فيها مخصصات؟

- هي مجرد ذاتها راتب شرف - قال السيد هاشم بفخر - أليس مكافأة أن تنفض عنها غبار الكسل .

- أين هذا السيد المحترم الكسل؟ أيدينا تئن من القرع .

- أنتم لا تشغلون غير جزء ضئيل من كيانكم .. أصابعكم أدامها الله ذخراً لنا . فماذا لو شغلنا كل كيانكم؟ تلك هي فلسفة الفعاليات .

قال السيد عبد اللطيف بهمة محسودة :

- أنا على استعداد . فقد سبق أن اشتغلت في المدرسة المتوسطة

حارس مرمى . ولكن قبل أن ينمو لي هذا الكرش اللعين .

وأشار إلى بطنه المندلق حتى حافة المنضدة .

- سيدوب بعد قفرتين أو ثلاث .

قال السيد مطر متبرعاً :

- وأنا أيضاً ، ربما أصلح للتمثيل . فقد كنت أقدّم المعلمين واحداً

واحداً . ومرة كنت أمثل مدرّس العربية ، وأخذني الحماس

واندبجت في الدور . والتلاميذ ساهمون . ولم أفق إلاّ بعد ضربة على

القفا . لقد كان المعلم يشهد المسرحية من أولها إلى آخرها . وطردي

شر طردة . ولم أعد إلى الصف إلاّ بعد أن قطعت عهداً على ألا أعود

إلى التمثيل .. على الأقل تمثيل المعلمين .

- قال السيد كاظم :
- أما أنا فسأنضم إلى فرقة الإنشاد . فلا بد أنَّ صوتي القبيح سيضيع بين الأصوات الضخمة .
- قال السيد هاشم :
- كلنا أصحاب مواهب مقبورة . إلَّا أنها تحتاج إلى رعاية .
- قال السيد مطر :
- بقي عندنا السيد معروف .
- نعم ، إنه موهبة مقبورة أخرى .
- تبرع السيد عبد اللطيف ليقول :
- حسناً ، ماذا ستفعل ، يا سيد معروف ؟
- أنا لا أشارك في شيء . لست موهبة مقبورة أو غير مقبورة . أنا مجرد آلة طابعة .
- لا ، يجب أن تشارك .
- لا أريدُ الإشتراك .
- الإشتراك إلزامي .
- ومن قال هذا؟؟
- المدير العام .
- صمت السيد معروف ، ثم قال في ضيق :
- أنا لا أ تدخل في شيء ، ولا أصلح لشيء .
- قال السيد كاظم :
- ولكنك صلحت لتأليف مقالة .
- تافهة لم تصلح للنشر .. لا ، لا .. أنا لا أصلح لشيء .
- قانونياً لا يجوز .
- رجعنا إلى القانون؟ كيف ذلك ، يا سيد هاشم؟؟

- سأثبت لك ذلك . كل واحد منا ثروة وطنية ، حقل نفط غير مستغل . فهل يجوز التفریط به وعدم حفره ؟

- نعم ، نعم .. يجب أن يدُرَّ السيد معروف شيئاً .. نفطاً أو غازاً طبيعياً . سنتحمل الرائحة ، على أية حال ، في سبيل المصلحة العامة .

- أنا أرض جدباء .. صحراء .

- الصحراء الآن أؤمن من الأرض الخصبة .

- أنا الربع الخالي .

ضحكوا . وقال السيد عبد اللطيف :

- ومن قال لك لا يوجد نفط في الرّبع الخالي ؟ جزيرتنا العربية سفينة عائمة على نفط .

- حسناً . أنا حقل نفط ناضب .. جاف .

- لا ، لا يمكن .. يجب أن نتأكد من ذلك .

وأخذوا يحاصرونه . تركهم يثرثرون . دقت أصابعه أغنية حزينة فاترة ، على قانونه القديم .. قانوننا وقانونكم . لا ، لا أريد .. طوال حياتي سارح ، مستقل بذاتي ، لا أتدخل في شيء ، ولا يعنيني شيء .. سوى أن أرقب الغروب ، وأرى ما يحمل اليّ .. إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . لا ، لا أريد . متى سينتهي الدوام ؟ سأتمشى في العصر على شاطئ النهر . ربما ستخطر على الشاطئ . لي موعد معها ، ضربه لي القدر . إبتسامة حلوة وعينان حدوبتان . أنا ثروة وطنية متجولة .. لست ملك نفسي . ماذا لو قالوا لأمي المحروسة إن ابنك حقل نفط ، ويجب أن تنتزعه الحكومة منك ليصدر الغاز الطبيعي إلى الخارج . ستقول : في طفولته سرقت له رغيفين من خبز الجيران لأطعمه حتى لا يموت جوعاً . والآن تريدون أن تنتزعوه

مني؟ لا ، سأخرج عائطة . سأشقى هدومي .. سأرمي نفسي عن
السطح .. إلى غير ذلك من وسائل الإلتحار الشعبية .

وسمع أحدهم يقول :

- ستكون هناك فرصة للتعرف على شريكة حياته .

- ذات الوجه القبيح في المحاسبة؟

- ثروة وطنية أخرى .

- موهبة مقبورة .

- قل مطمورة .. المعادن المطمورة .. المواهب المطمورة .

- لسانك سيوقعك تحت طائلة القانون ، يا سيد كاظم .

- حتى لساني بخلت عليّ به ، واللسان أنشط عضو فينا؟ الله أكبر .

وكان السيد معروف يقول لنفسه . والأحلام نشاط أيضاً .. لها

لسان لا يسمع له صوت ، ولا يضار به أحد . نشاط كنشاط القلب ، لا

يهدأ في ليل ونهار ، ولا يكف لدى مزاولتك أي عمل آخر . ومثل

دقات القلب لا يخضع لسيطرتك .. أو ربما ينشط حين يزيد

الادريادين .. أو الادريالين .. لا أعرف .. شيء على وزن طور

سنين يزيد في الدم ، يفور ، ويغلي ، يبرد ، يتثلج ، يجمد ، وتكون

النهاية .. يتوقف القلب والدم والأحلام وسائر النشاطات

الأخرى .. سكوت ، فراغ .. وحشة .

- سيد معروف ، المميز يدعوك .

توقف نشاط السيد معروف الداخلي . ذهول خرج منه السيد

معروف ليرى فراش المميز أمام طاولته . كتلة ثقيلة تتحرك خارج

حدود نشاطه . تلفت فيما حوله . كانت عينا السيد هاشم تنظران إليه

بنفس الابتسامة الخبيثة . لا حلاوة فيها ، ولا حنية .. إفتراس .

وقال السيد مطر :

- لا بد أنه سيناقة في مسألة الفعاليات .
- مَنْ يخالف القانون يحاسب .
- أو ربما سيناقه في مسألة زواجه المتأخر ، ولا سيما وأنَّ الفرصة سانحة . إذا تزوجت امرأة تشتغل بالحاسبة نظمت حياتك كالسطرة .

دق السيد معروف الباب بقلب واجف .. أدرنا لين .. وصدرت « ادخل » غامضة مكورة ، مثل كلمة تقال في الحلم . فتح الباب ، ورأى الاستاذ المميز . صلته اللامعة ، بالأحرى ، نظارته السمكية ، قذاله الاشيب ، النائيء فوق اذنه الكبيرة ، صفحة خده العريضة المتضرسة ، مثل رغيف خبز على وشك أن يحترق من كثرة ما بقي في تنور الوظيفة . إعوجاج رقبته الغليظة . شعاع مصباح الطاولة المؤطر لوجهه كله . كان الاستاذ المميز يكتب ببطء قاتل ، وبخط ثقيل ، وكأنما يتهمجى الكلمة تهجياً . وهي عادة لاحظها فيه السيد معروف منذ أول اشتغاله معه ككاتب تحرير . وقف ينظر إليه صامتاً ، فقد خشى أن يتكلم فيخرج صوته متحسراً ، غير طبيعي ، قبيحاً في صمت الغرفة شبه المظلمة . بعد دهر من الانتظار حرر الاستاذ المميز القلم من بين أصابعه الغليظة التي كانت تصلح لكل شيء إلا للكتابة ، وألقاه على الورق الأبيض . لم يلتفت إلى السيد معروف مباشرة ، بل صوب عدستي عينيه إلى الحائط المقابل لحظات ، وكأنما يفكر في مسألة عويصة لا يعرف كيف يخرج منها .. ودون أن ينظر إليه أشار إلى مقعد وقال له :

- إسترح !

فرك الاستاذ المميز صدغيه بأصبعيه الوسطى والابهام ، وكأنما ليتغلب على صداع كان يطوق رأسه ، وفشل على ما يبدو ، فرفع

نظارته إلى جبهته ، وفرك عينيه هذه المرة ، وترك النظارة تهبط
لتستقر في مكانها أمام عينيه . وعاجله بسؤال غريب :
- كيف أنت هذه الايام؟

رفع السيد معروف صدره ، وكأنه قد استفز . هل من المعقول أن
الاستاذ المميز استدعاه ليسأل كيف الصحة وكيف الاحوال؟
- نحمده ونشكره ونسبح بآلائه .

- تعايرك القاموسية .

- مذكورة بالقرآن الكريم .

- كنت أريد أن أسألك عن حياتك الخاصة .

- لا جديد فيها ، يا استاذ عبد الرحيم .

- غير معقول .

وتعجب السيد معروف في سرّه ، كيف عرف أن شيئاً جديداً
دخل في حياتي؟ إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان؟ وقال السيد
معروف منكرأً :

- اصدقك القول ، يا استاذ عبد الرحيم .. ربما ذلك غير معقول ،
ولكنه حقيقي .

- مع مَنْ تلتقي في هذه الايام؟

- مع مَنْ؟ لا أحد ، يا استاذ عبد الرحيم .

وتكسرت نظرة السيد معروف مخدولة على زجاج نظارة المميز
السميكة . تضاريس الوجه صلبة حادة خشنة تخفي تشككاً
وصرامة ، وتصل ما تقطع من تاريخ مليء بالمنفصات . والصمت
يتضخم إلى شيء لا يحتمل ، خشي السيد معروف أن ينفجر فقال
مدارياً :

- هل أنت مغثوث من شيء ، يا استاذ عبد الرحيم؟

- لا ، أبداً .
- ولم تبعث لا النافية الطمانينة في نفس السيد معروف ، بل زرعت في ظهره برودة لا إرادية ، وبددت في خياله كل أمل في ابتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين .
- أما زلت متأثراً من «نُمي إلينا» ؟
- حذقتك اللغوية لا تهمني . من يقرأ سيبويه الآن ؟
- وأنا أيضاً .
- وضحك السيد معروف ضحكة باردة قطعها الاستاذ عبد الرحيم بجملته غامضة :
- ولكن المهم القصد والغاية .. الفكرة التي تسيطر على الدماغ وتدمره .
- لم تسيطر أية فكرة على دماغي .
- سيطرت ، سيطرت .
- أية فكرة ؟
- كنت تريد أن تغير لغة المكاتبات الرسمية .
- أبداً والله . ولكني كنت أحب أن ألطفها . وهذا أيضاً تبنت منه ..
- حتى الأخطاء النحوية لا يهمني أمرها الآن .
- أخطاء ؟ هذه هي الفكرة المدمرة . كل الذين لا يعجبهم شيء ، ويريدون رفضه أو تبديله قالوا إنه خطأ ، ليأتوا بفكرة من عندياتهم .
- ولكن هناك أخطاء نحوية واضحة .
- لا يوجد خطأ نحوي واضح .. إن هذان لشاعران . هل هو خطأ واضح ؟ قل لتفكر .
- ونظر إليه نظرة تحدي واعتزاز بهذا المثل المحير من القرآن

- الكرم . وبدأ السيد معروف يتراجع .
- أنا آسف ، يا استاذ عبد الرحيم .
- إذا جئت إلى المكاتبات الرسمية كاسط مثال . منذ أن خلقت حتى الآن هي على حالها . يفهمها الناس ، وتُسَيَّر فيها الأعمال ، وتُحل المشاكل . فلماذا ندس أنوفنا فيها؟ لماذا ندمرها؟ وما الفائدة من فتح باب جديد من المتاعب؟
- أنا آسف .
- صمت الاستاذ عبد الرحيم ، ولعبت يده بالاوراق .
- نعود مرة أخرى إلى علاقاتك .. جئتنا إلى موضوع آخر .
- أية علاقات ، يا استاذ عبد الرحيم؟
- علاقات ، علاقات خافية علينا .
- ليست لي علاقات ، يا استاذ ، لا خافية ولا علنية .
- علاقات تغيّر تفكيرك .
- وقال السيد معروف في سره : موفق .. هل يقصد موفق؟ هل كان ورائي حين نبع موفق من جحر الليل . وأحس بضيق شديد ، وركبه شيطان العناد ، مثلما يركبه في كل موقف من مثل هذه المواقف ، وسيطر على لسانه ، وأجرى عليه جُملاً شيطانية فالتة :
- قال بعد صمت :
- أعترف لك ، يا استاذ عبد الرحيم .. عندي علاقة قوية ..
- أها .. شفت؟ مع مَنْ لو سمحت وتفضلت .
- مع الغروب ، يا استاذ عبد الرحيم .
- مع مَنْ؟
- مع غروب الشمس .. في كل مساء تقريباً أراه من خلف زجاج مقهى جبهة النهر .

- هل أنت تهزل؟
- لا ، والله . وليتسك يا استاذ عبد الرحيم . ترى الغروب مرة واحدة ، فستراه مرات .
- وهل تحسبني عاطلاً لا عمل لي ؟ .
- ربما يهدي لك ابتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين .
- ما هذا البطر؟
- أتخسبه بطراً ، يا استاذ عبد الرحيم؟ آه ، لو رأيت ما رأيت البارحة؟
- ومن فرط ما كان يفيض في داخل السيد معروف من رقة وعذوبة وملائكية خُيِّلَ إليه أن التضاريس على وجه الاستاذ عبد الرحيم قد تثلمت . أَلعله يتسم ، في داخله ، لحُفَة روحه؟
- ماذا رأيت البارحة؟
- إبتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين؟
- هي التي لعبت بعقلك وحولت تفكيرك؟ لا تنس أنك موظف دولة .
- إرتد السيد معروف ، وأرخى شيطان العناد سيطرته على لسانه .
- عقلي ليس كرة يُلعب بها .
- قال الاستاذ عبد الرحيم محتدّاً :
- كرة أو دعبلة .. هذا لا يهمني .. ولكن يهمني التخريب الحاصل في تفكيرك .. من هذا الذي يخرّب تفكيرك؟
- لا أحد .
- أو بالأحرى .. هذا الذي يحول تفكيرك إلى جهة غير مأمونة .
- لا أحد .
- عندي شيء ملموس ، مستمسك .

- وهل يلمس الخيال ، يا استاذ عبد الرحيم ، ويتحول إلى واقع ..
ليته . ولكن ذلك لا يحصل ، مع الأسف الشديد ..

- عندي مستمسك .. تعال .. اقرب .. ما هذا الذي كتبتة في
كتاب رسمي ؟ الموضوع : تحويل تفكير .

وأحس السيد معروف بأنه أشد حاجة إلى الكرسي الذي تهيب
أن يقعد عليه ، فإن رجليه بدأتا تسيحان . وسمع صوت الاستاذ عبد
الرحيم يأتي إليه من كل جانب ، ويطوقه ، ويكاد يخنقه :

- في مكاتبة رسمية تسمح لنفسك بأن تكتب تحويل تفكير ..
تفكير من هذا الذي تريد أن تحوله ؟ . الدائرة ؟ .. الدولة ، المجتمع ؟
هذا شيء يحاسب عليه القانون .. هذا .

والكلمة التي لم ينطق بها كانت أضخم من كل التهم .. لأنها
ملأت فمه ، وشنجت أوداجه ، ففص بها وعجز عن النطق بها .
نبشت يده في الاوراق الموضوعة أمامه ، وخربشتا كفاًرين حافقين .
وأمسكتا بالكتاب المشوم ، وطواته أربع طيات ، وغاب الكتاب في
جيب سترته .

- زين .. رح !
عاد السيد معروف إلى غرفته ، وجلس مطويّ الجذع أمام آله
القديمة . وكانت يده قد خرجتا عن سيطرته هذه المرة ، فدسهما في
جيبي بنطلونه . وظل منكس الرأس ، ذاهل الذهن حتى آخر
الدوام .

في البيت اتجه إلى حجرته دون أن يسأل عن صحة أمه ، وهي
عادة اكتسبها مع مرور الايام ، وتقلب الصحة بين اعتلال
واعتدال . كان يشعر بشل قشعريرة خبيثة تسري في أوصاله ،
واخلال في جسده كله ، خلع ملابسه على عجل ، واندس في فراشه ،

طاوياً رجليه على بطنه ، شابكاً ذراعيه فوق صدره ، محاولاً أن يتغلب على الارتجاف اللاإرادي . دخلت مرهونة عليه الحجرة تحمل صينية الغذاء . صدمته رائحة الطعام الثقيلة . تقلبت معدته . وسرت رعشة ظالمة في ظهره . قال بصوت ممتعض :

- لا أريد أن أكل . تغذيت في الدائرة .

سمعت مرهونة اصطكاك أسنانه . قالت بصوتها المتفجع :

- ماذا بك ؟ لزمتك الباردة ؟

- إسكتي .. ستسمعك أمي .. دثريني !

- اللحاف فوقك .. في مثل هذا الحر .

- بطانية .. أريد بطانية .

إبتعدت لتجلب البطانية . ناداها :

- مرهونة .. أخرجي الصينية . معدتي تتلوى .

- من الجوع .

- لا ترفعي صوتك .. ستسمعك أمي .

- أمي .. أمي .

شش .. دثريني .. معدتي . رأسي .. رأسي كالطبل . شش .

باردة . إسكت . لا تفكر . الموضوع . تحويل تفكير . استاذ رحيم لا

أفكر . والله العظيم لا أفكر . شش . باردة . لا أفكر .. لا .. أفكر .

مكاتبات رسمية . يحاسب عليه القانون . استاذ عبد الرحيم عن

اذنك .. أشبه باردة تنتهض الرعدة في ظهيري من لدن الظهر إلى

العصير .. برد .. باردة . دثروني وين البطانية وقعت في مصيبة

ستين مصيبة سبعين مصيبة لطول العمر مستمسك وتعال يا حمار

وخلص نفسك من هذه الوحلة لطول العمر أشه باردة دثروني عن

إذنك استاذ رحيم باردة إسمح لي أشه باردة وين البطانية يرد لي

كل بنت فكيف وصلت من بين البطانية واللحاف كأنني وقعت في
السطح تدعبلت الدعبل بيض الضفدع دعبل الخزاعي .. لو كنت
من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان إذن لقاموا لم
يقوموا قاموا لم يقوموا .. سأقوم أنا حان وقت اللقاء ابتسامة حلوة
وعينان حدوبتان أحسها في فؤادي آسف يا آنسة ما اسمك صبيحة
مليحة سلوى نجوى ليلي ليلي المريضة في العراق أنا المريض في
الفراش مريض مريض مريض ..

فتحت مرهونة الباب ، وأطلت عليه :

- معروف ، هل صحت عليّ؟

- لا .

- ما زالت الباردة لازمتك؟

- أحسن ، أخف .. أحر نار الجحيم أبردها ..

- يا جحيم؟

- إسكتي .. أغلقي الباب .. لا تقولي لأمي .

ست دقائق .. السادسة . الغروب الغروب يا ناس الغروب
صبيحة على الشاطيء الشمس تتمشى على صفحة النهار ذكاء قلق
المليحة هي مسك هتكها ومسيرها في الليل وهي ذكاء أسفي على
أسفي .. لست الآن على الشاطيء حرارة عرق غزير أزاح الدثار
الأول . رفس الدثار الثاني . سكبت البرداء ماء وجهها على جسده .
للزوجة تلصق دشاشته على ظهره وصدره . إختناق . ضيق
أنفاس . ربما يستطيع أن يلحق بالغروب . ودّ لو تكون له جناحان . يا
ريتي طير ، وأطير حواليك . لو خفّ رجله ، وانسل من البيت
وذهب إلى هناك . إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . وقف أمام

المرأة . رأى وجهه مظلاً . دهليز مظلم تحت ذقنه فزع لمرآه . رقبته الطويلة ازدادت طولاً . غوران تحت وجنتيه . هل من المعقول أنه كان بهذا الشكل المسوخ البارحة ، حين استقبلته إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان؟ ماذا ستقول عنه الآنسة (س)؟ لا ، لا ، لن أذهب . لا أقطع خيط الامل . عاد إلى سريريه ، وانسل فيه . أي حظ تعيس حظه؟ لو يذهب إليها اليوم ، اليوم فقط ، ليؤكد لها أنه لاحظ ابتسامتها . ولا بأس إذا تغيب غداً وبعد غد . لو يثبت لها أنه التقط اللفتة ، وعرف المقصود . . اليوم ، اليوم هو الشاهد الوحيد على وفائه . أي حظ عاثر حظه . يتمرض في أمسية الوفاء هذه . ستنساه غداً . ستقول إنه ليس ذكياً تكفيه الإشارة . ليس وفيّاً ، ولا ذكياً ، ولا محتاجاً إلى ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين . اتصل منذ اليوم الأول . ذهب ولم يعد . ربما هو متزوج ، وله خمسة أولاد . . لا ، والله ، يا آنسة . . أريد أن أثبت لها ذلك . . أريد . . ودفع الغطاء ثانية ، وعكف ساقه ، وهمّ بالنزول حين سمع دقات الساعة . . واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . الغروب غادر المدينة ، واتجه صوب الصحراء . ربما هو على أبواب دمشق الآن . يعسجد مسجدها الأموي ، وبعد ذلك ينحدر إلى جبال لبنان . . قبرص . . صقلية . . مالطة . . كورسيكا . . إخوان كورسيكا . . جبل طارق . . البحر من ورائكم ، والليل أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الارق والتفكير تحويل اسكت حوّلت فكرك وكفى . الإنسان يحول فكره مرة وبعدها فلاة إلى غير اللقاء تجاب . لماذا هذه العداوة ، يا استاذ عبد الرحيم؟ هل كفرت حين شطبت على « نحيطكم علماً » أيام كنت أجلس على منضدة السيد هاشم؟ هل ترندقت حين أدخلت في كتاب رسمي « نُميّ الينا »؟ وما ذاك إلاّ

أن ادلّ عواذلي على أنّ رأيي في هواك صواب..

- معروف ، هل أصب العشاء .

- بعد شويه .

- هدأت معدتك؟

- تقريباً.. لا أظن..

لا أظنه متأثراً من ذلك راحت تتخبل على التلفزيون مستمسك جرمي ربما رأت ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين تمشت على الشاطيء وطوقته بعينيهما لم تأت للعشاء حتى الآن سحر هذا التلفزيون سحر أعوذ بالله من الشيطان ليلة نابغية وليل كموج البحر أرخى سدوله ماذا يبتي الله لو تسمع هي واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة أنشّف عرقى وأخرج ، صرت زين .

نهض من السرير . صفا وجهه قليلاً من بعض الظلال ، حين أضاء المصباح الكهربائي . الرقبة لامعة والجبين والانف . مسح العرق . لا بأس . لست أحول ولا أعور ولا أخشم ولا أشرم ولا مجرور الاذنين . ولكن هذا التعب الطاعى ، وتفكك المفاصل ألجأه إلى السرير ثانية . فكر أن يأكل لقمة . أرجأها بعد الاستراحة . وتشاءب ، وطوى ذراعيه على صدره ، وغفا . أبقضته دقائق الساعة في الليل مرتين . بدت له مثل دقائق على آلة طابعة . كرهها ، ولم يرد أن يعدّها . نوم متقطع يفرق في لجته ، ثم يفيق . أحلام مجزأة ، هي نتف من واقع اليوم البارح . في آخرها أطل الاستاذ عبد الرحيم على رأسه يحمل أوراقاً . إستيقظ السيد معروف . واستغفر له ، ونهض من سريره ، وخرج يستنشق الهواء في الحوش . كان رماد الفجر يكحل عين الحوش العوراء . رأى أمامه المغسلة التي اشتراها قبل شهر تلوح بيضاء عند الحنفية ، وسخّان الماء بشريطه الازرق ينتصب كقالب

كبير من الثلج . وساعة اللوان تقترب من السادسة . وفي الغرفة
المقابلة رأى أمه جالسة على سريرها ، متكورة ، معزولة ، مهجورة ،
تشد فوطتها البيضاء بيدين عمشاوين . أحس بإشفاق موجع نحوها ،
كأنما رآها على قارعة الطريق تستجدي عطف الناس . دخل الغرفة ،
وصبَّحها بالخير . رفعت رأسها نحو مصدر الصوت ، ومدت يدها إلى
أمام تريد أن تمسه .

- كيف أصبحتِ ، يوم؟
- لم أنم الليل كله ، أسمع دقائق الساعة . لم تدق ست دقائق بعد .
- على وشك . طلع النهار .
- يا ليتني أرى النور .
- سمع الشكوى للمرة الألف ، ولكنه أحس بألم مضمض للمرة الألف .
- فهذه المخلوقة العاجزة شبه العمياء هي التي ربته ، وسرقت ، في
- طفولته ، رغيفين لتطعمه وأختيه . لقد رأى ذلك رأي العين وانغرز
- في الاعماق القصوى من ذاكرته كشوكة تدميه .
- كيف نمت؟

- شكر مرهونة في سره لأنها لم تخبرها بما حلّ به .
- جئت من الدائرة تعبان ، فنمت كالحجارة .
- نوم العافية . لم تحس حين جاءت محبوبة .
- لا ، متى جاءت؟
- بعد أن دقت الساعة عشر دقائق بوقت طويل .
- كل ذلك في بيت الجيران .
- بيت الجيران!.. سحر! أختك مسحورة .
- سأخذ سلفة من الدائرة ، وأشتري تلفزيوناً بالتقسيط . إذا كانت
- مسحورة بالتلفزيون بهذا الشكل .

- مسحورة ، ولكن لا بالتلفزيون .
- ماذا تقولين؟
- أختك عاشقة .
- وناحت بغموض وأسى كذلك الغموض والأسى اللذين يلفان
- قسمات وجهها المظلمة المسوحة ، المنطوية على أسرار حياتها .
- ومن هذا الذي تحبه؟ أتعرفين؟
- أعرفه ، وأنت تعرفه .. ولكن لا أريد أن أغثك .. يدك حارة .
- وكانت يدها قد دبّت حتى صعدت على يده ، في محاولة يائسة
- لإيجاد نصير . أم لعلها تشعر بالذنب في هذا الأمر؟ تذكرت
- وقارنت ، ووخزها ضميرها ، وامتلأ صدرها باللوعة .
- من هو؟ قولي .
- فضيحة .
- من هو؟
- حتى الساعة التي كنت أنام فيها طارت منذ أن سمعت .
- لا تعذبيني! قولي .
- لا يخطر على بالك . مَنْ السايب أبو الطلايب في المحلة كلها؟
- ما هذا الذي تقولينه؟
- وكوّرت فيها ، فخيّل إليه أنها ستنطق باسمه في اللحظة التالية ،
- تحركت سورة غيظ في أعماقه . فاقفها بأن وضع يده على فمها :
- لا تذكرى اسمه .. عرفته .. لا حاجة!
- وتلفت ، وكأنما يخشى أن تكون مرهونة أو حتى محبوبة تسمع
- همسها . كان الظلام الشاحب في الحوش قد كشف ، وخلف وراءه
- زرقة فضية كدرة . نهض من جلسته غير المريحة على حافة السرير ،
- ففرقت فقرات ظهره . عرج في الخطوة الأولى . أجال بصره فيما

حوله . وقال في نفسه : « أين الشروق الذي يريدني موفق أن أراه ؟ .. ربما هو في بيت الجيران ؟ بيت الجيران ، بيت الجيران .. محبوبة تحب . ومن ؟ أبو الطبول ! راح يدق لي طبول .. يا ساتر .. يا رب .

قضى حاجته بعسر شديد . ثم ذهب ليغسل يديه في المفصلة الجديدة . وكان انسكاب الماء على وجهه مريحاً ومنبهاً جعل فكره في يقظة تامة . آمن كلياً بمقدم نهار جديد . لو كانت القصة قصّة تلفزيون استدان ، واشترى ، وحلّ العقدة . ولكن عقدة محبوبة الآن لا يحلها الدّيان .. مشكلة أخرى . مستمسك آخر . كلها منك ، يا أستاذ رحيم .

هتف بالجملة الأخيرة في ضيق . جاءت مرهونة راكضة .

- صحت عليّ معروف ؟

- لا ، كنت أتحدث مع نفسي . أستهين من الشيطان بالرحمن . هل سبق لك يا آنسة مرهونة أن تحدثت إلى نفسك ؟ هل سبق أن ضبطوا عليك مستمسكاً جرمياً ؟ قصة تلفزيون .. غروباً .. ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين ؟ لا ، أبداً أبداً ؟ لا يخلو أي إنسان من مستمسك جرمي ؟ قادر ، يا شيخ عبد القادر ! هذا مستمسك الجرمي .. صينية مسودة الحواشي ، عليها صحن جبن منقوع واستكان شاي يعدل الدماغ . يجعل الإنسان يفكر . لا ، خطر ! من الصبح !

- البارحة جاء صاحب الحوش ، فخفت أن اوقظك . قلت له مسخن .

- جاء أبو صريح العبارة ليأخذ زيادة جديدة ؟

- لا ، يقول إس إس .. ملاك .

تعذر عليها أن تنطق بالكلمة ، فساعدتها معروف على ذلك :
- إستملاك ! دعيه يستملكني أيضاً .. يستملكنا كلنا . والله لا أخرج
من هذا البيت إلاً على رؤوس الخراب .

نظرت إليه مشدوهة . لم تعرف على أية رؤوس سيخرج أخوها
من البيت . ربما يريد أن يقول الخراب . فأخطأ ، مثلما أخطأت هي
في لفظة إس .. إس .. ملاك . حدس أخوها ما يجول في خاطرها ،
من نظرتها المشدوهة والارتقاء في وجهها المسحوب . قال يفسرها لها .

- يعني لن أخرج .. بالسكاكين ما أخرج . وأين نذهب ؟ .. في هذا
البيت قضيت أكثر من عشرين سنة ، وتدرجت بالاجار من ثلاثة
دنانير إلى خمسة وعشرين ديناراً . فماذا يريد حاج شكر ؟

وبعملية ذهنية حاول أن يحسب عدد الكتب التي يطبعها الآن
من نوع « كتابنا وكتابكم » ليسدد الإيجار الشهري لصاحب البيت ،
وتعذر عليه ذلك . فقال :

- خلاصتها .. كثيرة بموضوع تحويل تفكير أو بغيره .

قالت مرهونة متمنية :

- بلكت الله يحول فكره .

- لن يحوله . نتحول نحن ولا يتحول .

فهمت مرهونة « التحويل » بمعنى الانتقال إلى بيت آخر .
رفضت رفضاً باتاً ، وتساءلت ملتمعة :

- من يتحول في هذا اليوم الاسود ؟؟

- نحاول ألا نتحول .

- التحويلة تكلف .. تهريء الجلود .

- أحسنت ، و تقولي الجيوب .. لأنها مهترئة من الاصل .

وتأوه السيد معروف ، وتأوهت أخته بالعدوى ، أو التبعية ،
وكأنما تئأب أمامها . تئأب عمر ..
- الخلاصة ..

ونهض السيد معروف ، وأمسك خاصرته ، وقال متوجعاً كالمرأة :
أوف ، ظهري .. لا ، لا بأس .

رقت في أنفه رائحة كاربون لا يعرف من أين جاءت . ذكرته
بالساعة . وكانت قد دقت سبع دقائق . ولكن ذهنه كان مشغولاً فلم
ينتبه إليها . إستعجل . في الباص ذكرته الدفعات الآتية من الخلف
بتعريف فعل « إندحس » . لا وجود له في القاموس الذي يعتمد
عليه . أساس البلاغة للزمخشري . ولكن المزيد من الافعال كثير في
اللغة العربية يجعلك تقول « إندحس » مثلما تقول إنكسر .
إندحس ، يندحس ، فهو مندحس . تأخر ، يتأخر ، فهو متأخر عشر
دقائق على الدوام . كفى ، يمكن القول . يا ربنا ، نجنا من الدحس
المفاجيء ، الخلفي منه والجاني . والأمامي مقبول . كفى ، لا تسم
صباحك بحرب ضد اللامرئيات . دخل الدائرة . صباح الخير ، صباح
الخير . مرّ بقسم المحاسبة . هل يلقي نظرة ؟ إبتسامة حلوة . لا ،
معلّبة . ليس فيها شذى الاصيل . ليست ممزوجة بطراوة النهر .
وعدل عن الفكرة .

- صباح الخير .

- صباح الخير ، آغاثي . اليوم متأخر ، سيد معروف .

- بضع دقائق .

- هل ستحضر اجتماع النشرة اليوم ؟

- قلت لك البارحة اعفوني من اللجنة . ما عندي علاقة لا خفية ،

ولا علنية .

في الغرفة نقل « النفاضة » باصبعين من منضدته إلى منضدة أخرى قائلاً .

- نفاضتكم ، يا سادة .

ضحكوا ضحكة جماعية .

- نرجو المذرة ، نسيناها .

- وستنسونها غداً أيضاً . أنا أعرف .

- لا نستطيع أن نكتب لك عهداً بذلك .

- أفهم . لا تعهد . الإنسان ميال للنسيان .

- أحسنت يا سيد معروف . لا فضّ فوك .

إبتسم السيد معروف لجملة السيد هاشم هذه . كلمة حق يراد بها باطل . تعبير بليغ يراد به معنى مبتذل . ساعك الله ، أو قاتلك الله . سيّان عندي . ذهب الناس وبقي النسناس . لا تريدون أن تقدموا تعهداً . هذا طيب . ربما هذا من حقكم ، أن تعيشوا بلا مستمسك جرمي .

قال السيد كاظم :

- ما معنى : لا فضّ فوك ، يا سيد معروف ؟

تلكا السيد معروف بالرد فتبرع السيد هاشم كاتب التحرير :

- الفوه يعني الفم . وفضّ معروف . فضّ غشاء البكارة .

رفع السيد معروف رأسه ، وحاول أن يعترض ، ولكن لم يجد ميلاً لاستخدام صوته . قال السيد مطر :

- هذا ما ندعوه إليه ، أن يفرض بكارة . ولكنه مؤمن مبدأ الاكتفاء الذاتي إيماناً لا يتزعزع .

السيد عبد اللطيف :

- سيتزعزع حين يلقي نظرة في قسم المحاسبة .

السيد هاشم :

- القدر سيتكلف بالأمر .

- كل شيء قضاء وقدر .

قال السيد كاظم :

- لا تجوروا على السيد معروف . فالقضاء والقدر وحده جعله يعمل
بيننا كاتب طابعة .

إهتبلها السيد هاشم فرصة .

- وإلاً لكان الآن في خدمة القانون محامياً يشار إليه بالبنان .

قال السيد عبد اللطيف :

- خفتم على فمه أو فيه من الفض ، فاعتصم بجبل الصمت أو بجبل
الصمت . لست أدري كيف يقولون .

السيد هاشم :

- سيسكت دهرأ ، وينطق كفرأ .

السيد مطر :

- لماذا لا تستخدم لسانك ، يا سيد معروف ؟

- صحيح لماذا ؟

قال السيد كاظم :

- حتى الدهر انتهى . الساعة تجاوزت الحادية عشرة . وأنت نفسك

قد قلت : كل ساعة هنا تعادل دهرأ .

السيد هاشم :

- هل قال ذلك ؟

- لا لم يقله صراحة .

- لا فرق . نية الاجرام واضحة .

فتح الباب ، وأطل فرأش المميز :

- سيد معروف ، الاستاذ عبد الرحيم .
- طاردته كلمة السيد هاشم :
- سيتكلم هناك .
- بالفعل كان السيد معروف مضطراً إلى أن يتكلم بعد أول جملة
- نطق بها الاستاذ عبد الرحيم . فاجأه بالسؤال :
- هل أنت مستعد لأن تعمل معي ؟
- إرتبك السيد معروف ، وتحير وقال رأساً :
- ولكنني أعمل معك .
- أقصد تتعاون معي .
- وأتعاون . هل نحن أعداء ، يا استاذ عبد الرحيم ؟
- في المدة الأخيرة ، وبعد انتقالك إلى قسم الطابعة أعتقد أنك تنظر
- إلى نظرة عداوية .
- أبداً ، والله . سلمني أي عمل تجدني مخلصاً بأدائه ، بمحدود
- إمكاناتي طبعاً .
- ثم جاء العقل الباطن فكشف عن التحويل الحاصل في ذهنك .
- لا ، والله . كما أنا .
- العقل الباطن ، سيد معروف ، ينطق بالمكنون .
- كان خطأ غير مقصود .
- ولكن لماذا هذا الخطأ بالذات ؟ الموضوع : تحويل تفكير . ثم لماذا لم
- يتورط زملاؤك بما تورطت فيه ؟ يعني توجد قاعدة ، أساس . العقل
- الباطن سيد المحققين .
- كل عقلي في الظاهر ، يا استاذ عبد الرحيم .
- ثم هذه .. ماذا سميتها ابتسامة بديعة ؟ وتدعوني إلى أن أترك
- شغلي وأشاهد الغروب . ماذا تسمي هذا ؟

- صعب أن تفهمني ، يا استاذ .
- ضحك الاستاذ ، وقال يطم كلماته :
- لغز؟ حزورة؟ ربما ، وأنا أدري . قد يكون هناك شيء غامض عليّ . ولكن هذا غير مأمون الجانب أيضاً . كل شيء يجب أن يكون واضحاً مكشوفاً ، إذا كان ليس فيه ما يعيب أو يخرج أو يعرض لتهلكة أو سوء أو محذور .
- ليس فيّ عيب ، يا استاذ عبد الرحيم ، لست أعرج ولا أهوج ولا مأفون العقل . أقسم لك بشرفي .
- أرجو ذلك .
- لم أتعدّ حدود القانون .
- أرجو ذلك . ولهذا عرضت عليك أن تتعاون معي بشكل أو ثقل .
- تؤمر .
- أين مقالاتك عن تاريخ النقل؟
- في البيت .
- إجلبها لأضيف إليها ، وأعدل بها ، فتخرج شيئاً جديداً لا ينسب لك .
- منذ البداية ، يا استاذ عبد الرحيم ، لم أرد أن تُنسب إليّ . كتبتها للمصلحة العامة . فلتذللّ بأي توقيع .
- لطيف . تعجبني . ثم إن لي أفكاراً سطرتها برؤوس أقلام ، وليس لي الوقت الكافي لأكتبها بالصيغة النهائية . خذها معك ، وأسطها على الورق .
- وقدم له قصاصة صغيرة مكتوبة بخطه المفلطح الغليظ .
- بحدود كم صفحة تريدها؟
- بحجبها ... بحدود ست . سبع .

- تؤمر .
 - ونمقها باستشهاداتك.. أنت تعرف الأشياء من مظانتها ، كما يقولون .
 - العفو، يا استاذ عبد الرحيم ، من مظانها ، جمع مظنة ، أي المرجع أو ما يظن أنه فيه .
 - كلمة ثقيلة . لا يهم . هل اتفقنا ؟
 - إتفقنا .
 - ولا حاجة إلى تحويل تفكير ؟
 - أقسم لك .
 - لا حاجة إلى قسم . المستقبل يكشف كل قسم .
- وعندما خرج السيد معروف من غرفة المميز ، وجلس على منضدته ، أحس بأنه أزاح عن كاهله ثقلًا . وقال لنفسه لا بأس . وهل كنت أطمع بأن أكون كاتباً ، وتدركني حرفة الأدب المشؤومة ؟ كتاب العربية الفطاحل كانوا يؤلفون الكتاب للكبار ، فيمنحون مُنحاً ، ويتقون شراً ولو كانوا يكتبونها باسمائهم . والجاحظ طيب الله ثراه اتقى تنور الزيات برسالة موجعة مفاجئة ، في الجد والهزل ، ينفي عنه التهم الباطلة ، ويفرق بينه وبين صاحب نعمته . أنت طويل وأنا قصير . أنت أصلع وأنا أنزع . أنت صاحب برازين وأنا صاحب حمير . أنت شاعر وأنا راوية . أنت ملك وأنا تابع . أنت مميز وأنا كاتب طابعة . ومن أنا بالمقارنة بالجاحظ ، وهل أطمح طموحه ؟ لا أريد إلا أن تعود طمأنينتي الأولى ، واستقبل الغروب كل يوم ، وأقتش في الشاطيء عن ابتسامة حلوة ، وعينين حدويتين . فاذا كنت تريد المقالة فخذها يا أسد ، يا استاذ الصنعة ، صاحب الصلعة ..

وسرته نتيجة التفكير ، وأهدت له نفحة من الطمانينة والامان ،
وكأنا قرأ رسالة الجاحظ كلها في سره ، الرسالة التي يحفظ مقاطع
كبيرة منها ، ويترنم بها في خلواته .. جُعِلْتُ فداك ليس من أجل
اختياري النخل على الزرع أقصيتني ، ولا على ميل إلى الصدقة
دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لبغضي دفع الإتاوة والرضا
بالجزية حرمتني . لطيف يا أستاذ جاحظ .

فرك يديه بحوية ، واستقبل آتته العجوز . وتراقصت أصابعه
على مفاتيحها بمرح وخفة . وكانت عيناه كعدستي آلة تصوير جادتين
مرهفتين تلتقطان ما سَطَّرَ على الورق إلى يساره ، فيخرج كلمات
متناسقة قوية نظيفة ، صالحة لتوقيع أصحاب النعمة .. ليس من
أجل اختياري النخل على الزرع .. أقصيتني . أوه ، كان يحس
إحساس الحماسة الوديعة في عشاها . ولما فتح الباب ، وأطل فراش
المدير العام ، يدعو إلى سيادته لم يساوره إلاَّ أسف خفيف على أن
يفادر دفء العش .. ليس من أجل اختياري ..

- عجيبة غريبة .
- اليوم ، لا يتعامل إلاَّ مع الكبار .
- عاد إلى سابق مجده .
- تغمدته الله في واسع جنانه .
نفس الغرفة الأنيقة التي زارها مرتين ، حين كان عضواً في لجنة
النشر .

- تفضل استرح .
- أنا ؟
تلقت السيد معروف وراءه . رأى الاريكة المخملية الناعمة .

- نعم ، ومن غيرك ؟ - وقبل أن يدعه يجلس - الحقيقة أن مقالتك أعجبتني .

إتفتت عند السيد معروف أية رغبة في الجلوس .
- أية مقالة ، يا سيدي ؟
- هذه .

- ليست لدي أية مقالة ، يا سيدي .
- عن تاريخ النقل .. نسيت ؟ وجدتتها مطمورة بين أوراقتي .
مدَّ السيد معروف رقبتة الطويلة مقوسة ، وأطل على الأوراق الممدودة إليه . إرتبك ، وشُلَّ لسانه . نفس المقالة التي وعد بها الاستاذ عبد الرحيم . تمالك نفسه بعد لحظة ذهول ، وهزَّ رأسه نافياً .
- ليست هذه لي ، يا سيدي .

- لمن إذا ؟
- للاستاذ عبد الرحيم .
- ولكنها بخطك .. أنا أعرفه .
- إستنسختها فقط .

نظر المدير العام إليه بعينين مستديرتين . ورأى السيد معروف فيهما استغراباً وشكاً وضيقاً . وألقى المدير العام الأوراق أمامه ، وتوجه إليه ، ملقياً ظهره على متكأ الكرسي .

- هل أنت تسخر مني ؟
- معاذ الله ، يا سيدي .
- ولمَ الإنكار إذا ؟
- قلت لكم الحقيقة ، يا سيدي .
- ولكن فيها تعابيرك .. أنا أعرفها .

- ليس لي تعابير.. يا سيدي .
 - فيها روحك الدعائية التي لا تخلو من الذكاء .
 - لا ، يا سيدي . ليست لي أية روح دعائية لا تخلو من ذكاء .
 - لا تنكر .
 - أقول الواقع .
 - أي واقع؟
 - هو أنني لا أملك أية روح ، يا سيدي . ودع عنكم أن تكون دعائية لا تخلو من ذكاء .
 - إسكت .
 - تؤمر .
 - لا يعجبني أن يكون لي مثل هذا الموظف .
 - أعتذر يا سيدي .
 - عم تعتذر؟
 - عن الازعاج ، يا سيدي .
 - عن أنك لا تملك أية روح؟
 - ربما أملك روحاً ، ولكنها روح السيد معروف ، كما يسموني .
 - ماذا تريد أن تقول في ذلك؟
- كان همه في هذه اللحظة أن يتبale وينفّر المدير العام منه في الحدود التي يتشكك فيها من أن تكون لهذا الأبله الواقف أمامه أية قدرة على تدبيح سطر واحد ، ليقن من أن المقالة ليست له ، بل للمميز .
- أردت أن أقول .. لست إلا نفسي .
 - نفسك ، طبعاً ، نفسك .
- ولكن الشيطان انزلق على لسانه من حيث لا يدري ، فقال :

- أقصد لست ثروة .
- ثروة؟
- نعم ثروة مطمورة أو غير مطمورة .
- فتح المدير العام عينيه ، وبخلق فيه .
- ماذا في ذهنك من أفكار فاسدة؟
- ليست لي أفكار على الإطلاق ، فاسدة أو غير فاسدة .
- إذآ ، ما هذه المظورة وغير المظورة؟
- سمعتم تستخدمون نفس الكلمة التي دار حولها الجدل عندنا في غرفة الطابعة .
- يعني؟
- صاح به المدير العام نافذ الصبر .
- لأنني يا سيدي ... (بعد صمت) ولكن إذا كنت تتصورني حقل
- نفط ، فأنا حقل ناضب ، يا سيدي .
- هل أنت تسخر مني؟
- حاشالله . أنا رهن إشارتك وإشارة الاستاذ عبد الرحيم .. ولكني
- لست مستعداً لأن أُصدّر إلى الخارج .
- ما هذه التصورات الشريرة؟ هل لعب أحد بعقلك؟
- لم يلعب يا سيدي . ليس عقلي ..
- إسكت .
- تؤمر ، يا سيدي .
- بعد صمت :
- أنت تافه .
- ممكن ، يا سيدي .
- ومشوش العقل .

- ممكن ، يا سيدي ، أقصد .. عقلي ..
- فاسد .
- نعم ، لا سيدي .
- هل أنت تمثل لعبة أمامي؟ دسيية؟
- نعم ، لا يا سيدي .
- لا تستخدم كلمة سيدي .
- تؤمر ، سيدي .
- أوه ، أحق ، تافه .. أخرج .. عليك اللعنة .
- خارج الغرفة كاد يتعثر بالفرّاش .
- هل أعادوك للجنة؟
- نعم ، لا يا سيدي .
- عاد إلى وكره .. وكر الصقور . صفرت الاصوات وراء طبله اذنه .
- محمّر مصفرّ .
- مخطوف مكسوف .
- تلقى إنذاراً نهائياً .
- وما الحاجة إلى إنذار نهائي؟
- هناك أناس لا يستجيبون إلاّ للإنذار النهائي .
- إنا لله وإنا إليه راجعون .
- حاول استخدام أصابعه . لم تطاوعه . كانت تدق دقاتها الخاصة ، على مفاتيحها العصبية . أخفاها في بنطلونه ، كأنما يتبرأ من العملية السرية التي كانت تقوم بها خارج إرادته . أعماقه ترتجف . دربزة . نوبة غير متوقعة . كل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده . كنت أريد أن أقول شيئاً ما ، لا أعرف ما هو . ولكن يلاً صدري ، ويتلجلج في

لساني خاني التعبير ، وبحضرة المدير . الله أكبر . ربما اعتبرني بهلولاً . لا ، والله ، ما أنا بهلول ولا مخبول ولا دقاق طبول . أريد أن أضع نفسي في موضعها . أين موضعها؟ لا أدري .. أخرج من مصيدة لأدخل في مصيدة . أوه ، لماذا فعلت ذلك؟ كأن جنياً داخلي يورطني ، ينطق بلسان غير لساني . مصيبة . إبتعدت عني الإبتسامة الحلوة . فلاة إلى غير اللقاء تجاب . وفي النفس حاجات وفيك فطانة . سكوتي بيان عندها وخطاب . وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعف هوى يبغي عليه ثواب ، هذا مستمسك آخر ، يا جراب ! وفي نهاية الدوام قال له السيد كاظم :

- سنخرج سوية .

أراد ذلك ولم يرد . خاف فلتة اللسان . س يلتزم الصمت ، المطبق والمغلق . تركه يتكلم .

- سيد معروف ، هل تريد نصيحة؟

يريد أم لا يريد . لا يعرف . وقف صامتاً حائراً ، يردد في سره قول الجاحظ : « خيرتني بين العمى والجهل ، وما فيها حظ لختار » .

- وإذا أردت فماذا ستقول؟

- لم كل هذا العناء وتعذيب النفس؟

- صحيح . ما هذا الإستقصاء ، وما هذا البلاء؟ وما هذا التتبع

لعوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكروه؟

- أحسنت . فأنت تعرف جوهر القضية .

- لا ، السيد الجاحظ يعرفها . هذا ما قاله في الجد والهزل .

- لا ، أنا أقول لك جاداً .

- تفضل قل .

- لماذا لا تنضم إلى فرقة الإنشاد مثلي؟

قرعت عظام رقبتة الطويلة حين التفت إلى محدثه بجدة . ولكنه لم يرد عليه . خشي أن يخونه لسانه . واعتبر السيد كاظم السكوت من الرضى ، فطرح صيغته :

- ليس من الضروري أن ترفع صوتك . يمكنك أن تحرك شفتيك فقط ، بلا صوت ، وتكسب الأجر . بل يمكنك أن تنطق بأفكارك المختلفة عن أفكار الأغنية ، ولكن على نغمتها . مثلما تفعل أنت الآن . ربما تشمني في سر ، وتشك فيّ ، وتعتبرني معتوهاً . أفكارك الخاصة لك . إحتفظ بها ، ولكن لا تدعها تدور على لسانك .

- لسان الافعى .

- أنا؟ أشكر .

- لا ، سيد كاظم ، لساني .

- لسانك حصانك ، إن صنته صانك .

- لينفك في الآخرة ، حيث تواجه منكراً ونكيراً .

- فيك روح النكتة ، يا سيد معروف .

- التفت إليه بجدة ، وكأنما جوبه بصفحة .

- مصيبة . أنت متوهم أو واهم .

- أعذرني

- هل تريد أن تدينني؟

- لا ، أبداً . أريد أن أساعدك . ألا تقبل المساعدة؟

- لا أدري ، يا سيد كاظم ، لا أدري . ربما خلقت مداناً . هل يصح

ذلك بلغة القانون ، كما يقول السيد هاشم؟ ربما يصح في بعض

القوانين . ولكن للغروب قانونه الخاص أيضاً . يزرع الإبتسامات

الحلوة والعيون المحدوبة في الشواطئ الفيحاء ، ويورط البشر .

يحول تفكيرهم ، ويضع المستمسكات الجرمية في جيوب الآخرين .

- ها ها ها .. ألم أقل لك أنك صاحب نكتة؟
- لا ، أبداً . ولكن شر البلية ما يضحك ، يا سيد كاظم ، شر البلية ما يضحك .
- هزّ السيد كاظم رأسه مبتسماً له بصفاء :
- أنت أديب مغمور .
- مغمور ، مطمور ، مقبور .. كلها تؤدي إلى الويل والشبور وعظائم الأمور .
- إبتسم السيد كاظم محرجاً . قال يجاريه :
- لا بد أنك جوعان ، وبطنك تقرر .
- ولسانك يثرثر .. لا ، يا سيد كاظم ، خير لك أن تتلو ، وأنت المسلم ، « يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » صدق الله العظيم .
- أدار السيد كاظم رأسه بحركة استغراب وإشفاق .
- غلبتني على أمري .
- غالب ومغلوب . آزم ومأزوم ، منذ الخليفة إلى اليوم .
- أها . عرفت تفكيرك الآن .
- أبداً . لست أملك تفكيراً . والله العظيم لا أملك تفكيراً ..
- صدقني .. مصيبة أن لا تصدقني .. مصيبة .
- موفق ، يا سيد معروف .
- هل تعتبرني موفقاً . لا ، أبداً ! بل ينطبق عليّ قول بعض العلماء حين سئل عن أسوأ الناس حالاً . فقال فلان القائل عند موته : دخلتها جاهلاً ، وأقمت فيها حائراً ، وأخرجت منها كارهاً . ويقصد الدنيا .
- هزّ السيد كاظم رأسه حائراً أيضاً ، وانصرف . وترك السيد

معروف يحسّ كمن نطق بجملة ناقصة لا معنى لها ، لا تشفي غليلاً ، ولا تفي بغرض ، مجرد آهة معلقة في هواء غرفة مخنوق . هل تآدى ؟ هل قال غير ما يريد أن يقول ؟ لا يعرف ! ربما كان على خطأ في أنه لم يقل كلمة واحدة ، لا سلباً ولا إيجاباً ، عن عرض السيد كاظم بالإضمام إلى فرقة الإنشاد ، بتلك الشروط السخية التي لم يشك السيد معروف في أنها من تأليف السيد كاظم وإخراجه . مصيبة . ما الذي يجعله يتكلم بهذا الشكل ؟ ذلك الشيطان المريد الذي يطل على لسانه في تلك اللحظات الحرجة ، ويطلق على لسانه جُملاً طائشة ، مثل زفرات مخنوقة لا تنفس عن همّ يثقل على الصدر ، ولكن تعلن عن وجوده المكلكل هناك . لماذا لا يتجاوب مع الدعوات الكاذبة بدعوات مثلها ، ويترك ما في نفسه لنفسه . ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وقبل أن ينعطف إلى زقاق بيته رأى الحاج شكر ، صاحب بيته ، في إنتظاره في بداية الزقاق .

- أهلاً ، أبا صافي .
- بصريح العبارة ، أنت تضطرنني إلى أن أجيء إليك كل يوم .
- آسف ، أعتذر . كنت في الدائرة .
- وأنا تركت العلوة ، بصريح العبارة ، ووقفت أنتظرك . لا أستطيع أن أتفاهم مع النسوان . وأمك عصبية ، وأخاف أن ينزل الماء على عينيها فتعمى .

- شكراً على العواطف الكريمة . يا أبا صافي .
- قلت أنتظر معروف ، لأننا نتفاهم أحسن .
- نتفاهم طبعاً .

- إسمع ، يا سيد معروف ! بصريح العبارة : هل رأيت أحداً يقبل بأذية نفسه ، وبيده .
- لا أظن .. ربما لا يوجد مثل هذا الأحق في الدنيا .
- وتريد أن أكون مثل هذا الأحق ، بصريح العبارة ؟
- أعوذ بالله ، أستغفر الله .
- إذن ، إلى متى أصبر على انخفاض إيجار هذا البيت الواسع ؟ وحوله الاسعار تغلي وتفور ؟
- ولكن راتي ، يا أبا صافي ، لا يغلي ولا يفور .. بل ولا يحمى ..
- هذا لا يهمني ، بصريح العبارة . أريد حقي .
- حقك واطببت على استيفائه أجراً متزايداً منذ عشرين عاماً .
- لو أخذته ، لما وقفت كالذليل على باب البيت . وعلى باب أي بيت ؟ على باب بيتي الذي بنيته وعمرته ، بصريح العبارة .
- أنت بنيته ، وأنا أعمره منذ عشرين عاماً .
- ولكنه من أصل الإيجار ، بصريح العبارة .
- أضع أنا عشرين ديناراً ، فتحسبها أنت دينارين .
- وإذا كنت تريد أن تزوجه أكثر من اللازم ، بصريح العبارة .
- كنت أريد أن أخفي هرمه ، بصريح العبارة ، على حد قولك .
- أخرج منه إذاً ، أريد أن استملكه لابني ، بصريح العبارة .
- وأين أذهب أنا بصريح العبارة ؟
- لا يهمني أين تذهب ، بصريح العبارة .
- أشكرك ، يا أبا صافي ، بصريح العبارة .
- قصدي لو اهتم كل واحد بهذا وذاك لما وجد وقتاً ليرفع لقمته إلى فمه ، أو لما وجد هذه اللقمة أصلاً ، بصريح العبارة .
- ستجد ، ستجد ، وأكثر من لقمة ، بصريح العبارة .

- هل تضحك مني ، بصريح العبارة .
 - لا ، أبداً ، بصريح العبارة .
 - تحسبني مكدياً بصريح العبارة؟
 - لا ، أبداً ، بصريح العبارة .
 - إذن أخرج بصريح العبارة .
 - لا أظنني سأخرج بصريح العبارة .
 - سأضطرك . إبنني ساكن في بيت مؤجر ، بصريح العبارة .
 - حاول ذاك ، بصريح العبارة .
 - بصريح العبارة ...
 - بصريح العبارة ...
 - بصريح العبارة ...
- كان أحدهما يقاطع الآخر بصريح العبارة ، واختنقا ولم يكملوا
الجملة ، ولم يتفقا على شيء بصريح العبارة .
- دخل السيد معروف بيته محنقاً مرعب الوجه . فوق بصره على
وجه محبوبه الزاهي الذي بدا له منقطعاً عن دنياه ، لا مبالياً ، لا
يحفل بالآمه ، ولا يتأثر بما يحمل من هموم ، وجهاً يتألق بنور خفي ،
يرف فوق الظلام المكلكل على البيت . ثبت معروف عينيه
الملتهمتين فيه ، وتزاحمت على لسانه بدايات لا عدّها من الحديث ،
كلها جارح متفجر فتاك بتلك الطمأنينة العجيبة المرتمية على
إطباقه الشفتين ، ونضارة الحدين ، وتوهج اللحظات . إختار السيد
معروف أقلها إيلاًماً .
- ها؟ لم يبدأ التلفزيون بعد؟
 - أي تلفزيون؟
 - سألت بسهولة خالي البال .

- تلفزيون الجيران . أصبحت من عشاق التلفزيون في آخر الزمان .
وما حب الديار شغفن قلبي ، ولكن حب من سكن الديارا .
وخُيِّلَ إلى السيد معروف أن ابتسامة من نوع عجيب التمتع
على شفتي محبوبه أُخته ، وكأنها تعلن سموها عليه ، وسخريتها منه ،
وانفصالها عنه . أشاحت عنه بوجهها حياء بدا له مفتعلاً أناثياً .
وكأنما هو وسيلة أخرى للضحك منه ، والترفع عنه . فأراد إيذاءها
بسم لسانه :

- بدأت تبحين عن رجل؟ أي رجل يراك في الشارع أو في بيت
الجيران .. حتى .. حتى .. أعوذ بالله .

وبدا له أنه رفع صوته في غيظ ، وأن أمه المريضة ستسمعه
وتعاتبه ، وتقطع عليه حديثه الذي كان يود أن يأتي مفعوله ،
ويمزق ، على الأقل ، غلالة الطمأنينة الطفولية التي يتشح بها وجهها .
- تكلمي ، انطقي .. صفك العباس؟

تغيّر شيء في وجهها . إنعقد حاجباها . ولاح ظل من العناد
القاسي والاستهانة في نظرة عينيها السوداءين المستديرتين ، مثل
عيون القطط . وازدادت انطباقه شفتيها المثلثتين ، مما زاد من
سورة الغضب في نفس السيد معروف ، فلم يعد يحفل بمقدار ما يسبب
لها من إيلام :

- أنا لا أسمع لك ، لا أسمع لك بأن تعبني بشرف العائلة ، الشرف
الذي حافظت عليه بالآم معدتي ، وتقرح عيني .. لن أسمع لك ..
سأقتلك .. وأقتل نفسي معك .

أضاف باستشهاد وكأنما وجد من الظلم أن يقتلها وحدها ، وأنه
في قتلها لها وحدها لا يقيم دليلاً على تضحية أو نكران ذات .
سمع صوت أمه يرتفع من غرفتها :

- مرهونة ، هذا صوت معروف؟ ما يزال يتكلم مع صاحب البيت؟
أعطيني يدك .. سأخرج أنا له .

التفت معروف فرأى ظل مرهونة وراء باب موارد ، كانت
تتنصت إذاً . كان البيت كله ينصت .. أمه .. أخته .. والجيران .
لا بأس . لسمع العالم كلمته النهائية :

- إذا خرجت مرة أخرى من البيت كسرت رجلك .. ليس لنا في
الدنيا غير الشرف ، وتريدين أن تسليه منا؟

سقطت غلالة الطمأنينة أخيراً ، تلوت قسبات وجهها ، وانفجرت
تبكي . بكى أمامه بحرقه مخدولة مهزومة مطعونة عاجزة عن
الدفاع . وكأنما لتعلن براءتها مما اتهمها به ، حتى أنه سرعان ما أشفق
عليها ، وراح يهدئها .

- إسكتي ، إسكتي ، البكاء لا يؤخر ولا يقدم .
أمه من غرفتها :

- مرهونة ، هل معروف يتكلم مع محبوبة؟ معروف ، لا تتكلم معها .
أنا تكلمت اليوم . وعدتني . ووعد الحر دين
وكانما وجدت محبوبة نفسها محاصرة ، فاشتدت نوبة بكائها .
- وماذا عملت أنا؟ حرام عليكم ، حرام ...

وفرت لائذة بغرفتها ، وارتطمت في الباب بمرهونة التي كانت
تنصت خلفه . وحدثت هزهة ودبدة وتلاطم وراء الباب . وعرف
السيد معروف أن الاختين قد اشتبكتا هناك في مناوشة ، وأن
العراك الذي كان يتوقعه منذ زمان بين الاختين قد وقع الآن .
وقف حائراً يستمع إلى المهاوشة تتوارد عليه من الباب الموارد ،
وراحت تحتلط بالأنين والشهيق والزفير وتقطع الأنفاس في
الصدور . وشعر السيد معروف بأن تاريخاً قديماً من المساءات

والكبت والضم ، من الحرمان والمناكدة ، والصبر على عجز الآخرين
قد انفجر أمامه كالدملة المتقيحة . وقف حائراً لا يعرف ماذا
يفعل ، وإلى من ينحاز ، حتى سمع صوت مرهونة المنتخب المتوسل
الماجز :

- والنبي لم أفتن ، والنبي لم أقل كلمة .
فأشفق على الكبرى ، التعب في طريق المصير ، وآله عجزها
وهوانها وسوء طالعها ، فصاح من مكانه :
- كفاية ، محبوبة . سأدخل واهريء جلدك .. محبوبة ، كفاية !

تسارعت الكركبة ، وصدرت صيحة غامضة عنيفة ، وانتهى
الشجار بخسائر غير معروفة . وبقي صوت الأم يولول في الحجرة إلى
يساره ، يريد أن يضمن للأم حصتها من تسوية النزاع . خرجت
مرهونة على صوتها محمرة مجزعة الوجه ، منفوشة الشعر ، عرقه
الرقبة . ولأول مرة لمح السيد معروف في رقبتها طولاً يضارع طول
رقبته ، صفة لعلها تنفث في هذه العائلة موروثه من أب عن جد .
كأن الله لم يمن عليهم بالفقر وضيق ذات اليد فقط ، بل شفعه بطول
الرقبة أيضاً . شعر السيد معروف بأن ركبتيه توشكان أن تسيحا .
فقد سرت فيهما رجفة مفاجئة لا إرادية ، خشي بعدها أن يسقط ،
فهرع إلى حجرته ، وارتمى على سريريه . سيمر غروب آخر دون أن
يفغر روحه . ستطوف الابتسامة الحلوة والعينان الحدوبتان على
الشاطئ تفتش عنه ولا تراه . وانتفض مطعوناً . شعر بألم شديد في
معدته يفوق الألم المعتاد الذي يحمله معه صباح مساء . كانت معدته
تتلوى . شفرة . سن كافرة كانت تمزق لحمها . لا بد أنها فارغة ، ولكن
الطعام إذا سقط فيها الآن تحول إلى سم زعاف ، صودا كاوية .
إحتضن السيد معروف معدته بيده ، من تحت ثيابه ، كما يحتضن

كرشه، وأحس ببرودة يديه على لحم بطنه الساخن. ماذا يجري هناك تحت الجلد الأمרט، واللحم المنخوب؟ ليته يأخذ معدته بين يديه ويتفلاها. يتفحصها مثلما يتفحص قميصاً ظل يستربه أكثر من أربعين عاماً. لا بد أنه قد تهرأ الآن من كثرة اللبس، وتراكم الاوساخ، وترسب سموم الاطعمة الرخيصة، كم ثقب فيه الآن، كم قرحة، كم حز، كم تورم، كم بثرة! كان الألم يتوافد عليه مثل موجات متزايدة ترتفع حداثها حتى تصل إلى الذروة، فيغض عينيه، ويسترخي مستسلماً، وكأنما ينتظر ملك الموت. إنحدر خط من العرق لجوج لاذع خلف اذنه، وساح على رقبتة ببطء. ظل السيد معروف يتتبع مساره باعصابه طويلاً، فتجسم له طول الرقبة، فعجز عن تذكر الكلمات، ولكنه عرف المعنى: ليت لي رقبة الجمل لأتروى في الكلام قبل أن أطلقه من لساني. فهل طول رقبتة مقترن بفضيلة الصبر والتأني هذه؟ قد يكون له شيء من جلد الجمل وصبره على عطش الفيافي. ولكن تلك السورات التي ظلت تتفجر فجأة في أعماق قصوى مجهولة من غيب النفس، فتورطه. نعم، تورطه حقاً. وإن كان الاحساس بالتورط لا يلازمه طويلاً، وسرعان ما ينساه في كابوس ورطة أخرى جديدة. وعاد يتصور ذلك الشيطان المريد الذي يسلبه لسانه، ويجرى عليه أشياء تسيء علاقته مع الاستاذ عبد الرحيم، والسيد المدير العام، والسيد كاظم، والآن مع أخته، أشياء كان يجب أن تبقى في خزانة عقله الباطن، كما يسميه الاستاذ عبد الرحيم، وتستريح عليه. وتجعله ينصرف إلى الام معدته، متصيداً الابتسامات الحلوة في بحر الغروب.. لا، لا ينطبق عليه قول الإمام علي فيما يخص طول الرقبة.. طول لا طائل من ورائه! ظلت موجات الألم تتوالى خارج إرادته وسيطرتها، تنبع من

مصدر الزوبعة الملتهب داخل معدته . قال لنفسه : ليلة نابغية أخرى . فبتُ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناعم . سم في المعدة ، سم في الأمعاء ، سم في الفكر ، سم حتى مطلع الفجر . سيسمع دقات أمه ساعة بعد أخرى في دربزتها المثيرة للأعصاب . هاله ما ينتظره من طنوب الليل المشدود في الرواسي من همومه وأفكاره .. لا ، لا .. لا أفكار .. يا سيد محتار ! يجد رغبة في الذهاب إلى الشاطئ . فلا بد أن ألمّ المعدة قد رسم خارطته البشرية على وجهه ، خارطة الشيطان ، فأية ابتسامة حلوة تذوب أو لا تهرب من رؤية خارطة الشيطان على وجه إنسان . ولكن لا بد من اختصار الليل ، وتقصير ساعات الاحتضار . قرر الذهاب إلى المقهى . سيستقبل الغروب من خلف الزجاج ، وهو قاعد على كرسي مريح . فالجلوس يللم المعدة ، ويطوي تقرحاتها وجراحها ، ويسكن الألم إلاّ أن الخطوات الأولى أنبأته بأنه أمام ألم عنيد لا يقهر . كان سن الكافرة ينغرز في معدته مع كل خطوة ويزقها . إتكا على الحائط مغالباً الألم ، ورفع رأسه إلى فوق استغاثة إلى السماء ، فرأى رقعة تعلن عن طبيب الأمراض الداخلية . علق بصره فيها باستشهاد . نوبات الألم تتوالى يمك بعضها برقاب بعض ، فكأنها نوبة ألم واحدة . خيّل للسيد معروف أنه لن يفيق منها . ودون تفكير صعد الدرج ساحباً ثقله بذراعه اليمنى المتشبثة بالمسند . بعد الفسحة قابله باب مفتوح يؤدي إلى عيادة طبيب . توقف أمامه متردداً . لا ، لا ضرورة . ونكص بعقبه ، وكأنا أفاق من مشي في النوم . هؤلاء أكّالو السحت ، إخوان الجرائم . لا حاجة إلى عرض آلامي على أناس غرباء مثلهم . وخيّل إليه أن حدة الألم قد حفت . لا ، لا ضرورة على الإطلاق . وهبط درجتين . وتقلقلت معدته . وخزته سن

الكافرة، عاد فارقتي الدرجتين ثانية. سؤال وجواب. وصفة لتسكين الألم وعسى أن تكرهوا شراً وهو خير لكم. قابلته فسحة عارية، خالية مثل قلب أم موسى. جشعون هؤلاء الأطباء. وأنانيون. من الخير أن أخرج إلى الشارع، وأستنشق الهواء، وسيزول الألم. أستقبل الغروب على كرسي وثير. أشعته الشفافة، فإنها آس تجس عليلاً. أوه، أنا عليل. أوه، وجع. لأسلم أمري إلى الله. إستقبلته عيادة الطبيب بباب نصف مغلق. سأضيق المشيتين. دفع الباب. كان الطبيب يجمع المجلات المتناثرة على الكراسي. تفضل. أهلاً وسهلاً. كنت سأذهب لزيارة مريض في بيته، ولكن نقلوه إلى المستشفى. ربما أنا هو ذلك المريض. العيادة فارغة؟ حقك. اليوم عطلتي الخاصة بدلاً من يوم الجمعة، المخصص للفقراء. وتفضل، تفضل. سأغسل يدي من الغبار.

كان الطبيب يتكلم وحده منفصلاً عنه، منحنيّاً بقامته الطويلة المعوجة قليلاً، على الكراسي الجلدية المتربة المبعثرة، مزليلاً بطريقته العفوية هذه بقايا التردد في نفس السيد معروف. في الغرفة مكتب كبير عليه كتب ضخمة، وعلب أدوية ملونة، وساعة، وبارومتر، ونفاضة خزفية ضخمة كتب عليها «زنزانو». وإلى اليسار دولا ب زجاجي فيه تمثال من الجبس لإنسان مصغر يكشف عن بطنه وما فيها من معدة ومصارين وفي الدولا ب علب أدوية أخرى، وقوارير، وكف معروقة من الخزف اللامع. كل شيء يوحي بأن السيد معروف دخل العالم الشاذ الذي كان ينفر منه، وإذا دخل إليه مع أمه مضطراً تعجل الخروج منه. وردد في سره لازمته كلما يدخل العيادة. من حق الأطباء أن يكرهوا الأصحاء والموتى. فكلاهما خارج عالمهم الخاص.

جاء الطبيب يمسح يده بفوطه دمشقية زرقاء .

- نعم ، تفضل . أنا كلي آذان الآن .

نظر السيد معروف إلى وجه الطبيب المستطيل القوي الفكين
ذي الجبهة العريضة السارحة ، والأنف البارز ، والتكشيرة الطبيعية
الكاشفة عن أسنان كبيرة ، والرقبة الطويلة الشبيهة برقبتة من
حيث الطول ، ولكنها أمتن وأقوى ككل شيء في صاحب التكشيرة
الجالس أمامه ماداً ذراعيه قليلاً على المكتب ، يلتهمه ، دون كلفة ،
بعينه الجسورتين .

- دكتور ، معذري . تتمزق .. كأنني بلعت سناً كافرة .

- ها ، ها ، ها ! لطيف . سن كافرة ! تعبير موفق ! ربما ما زالت سن
الكافرة في الاستعمال اليوم . متى تحس بالآلم عادة ، قبل الأكل أو
بعد الأكل .

- قبل الأكل وبعد الأكل .

- هل له علاقة بما تتناوله من طعام ؟

- لا ، لا أظن .

- بالفرح والحزن ؟

- لا أدري .. لا أظن أنني فرحت في حياتي فرحاً حقيقياً ..

ربما ...

- ربما ، ماذا ..

- لا شيء ، تذكرت لحظة فرح خاطفة ، أطلت علي .. ولكنها لحظة

فرح عابرة لا يقاس عليها .

- هل خفّ الألم عند ذلك ؟

- لا أدري .. كان تحولاً فكرياً أنساني نفسي .

- متى كان ذلك ؟

أبطأ السيد معروف بالاجابة ، وأطرق برأسه ، ثم قال قبل أن يرفعه :

- أعذري .. إنس ما يخص التحول المزعوم .. زلة لسان .. كانت لحظة خاصة لا تكرر ولا يقاس عليها ، فلا تبني عليها أحكاماً ..
صحوة من الألم خاطفة . ولكن الألم في العادة يلزمني صباح مساء .
يخف أحياناً ، فأسهو عنه ، وأغرق في الآم أخرى أشد لا تتعلق بمعدتي .

- إسمح لي : هل أنت تدخن ، تشرب الخمرة ؟
رفع السيد معروف رأسه وقال بصراحة أمينة :

- جربت في الحقيقة . كان يعجبني أن أضيف إلى حياتي ما يجد فيه بعض الناس نشوة ، أو ما يظنونه نشوة . دخان السيكاارة كان يجعل معدتي تتقلب ، كما تتقلب حم داخل الأرض . أما الخمرة فقد عاقرتها ، كما يقولون مرة واحدة ، ففعلت بي الأفاعيل ، فأمنت بأبيات المتنبي .

- لطيف ! ماذا يقول المتنبي ؟ هل تحفظ الأبيات ؟ أرجوك ربما أستفيد منها طيباً .

- أبيات لطيفة يقول فيها :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
وللمعدة قروحها بالطبع .

تسيء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
يصير خشناً ... ولكنه أريحي

وأنفس ما للفتى لبه وذو اللب يكره إنفاقه

- ومع ذلك فذوو الالباب الذين يكرهون إنفاقها في نقصان مع مرور الزمن .
- ربما ذلك داء العصر الذي نسمع عنه كثيراً .
- سنة التطور .
- والبيت الأخير هو الذي كرهني بها .
- وقد مُتُّ أمس بها موتة ولا يشتهي الموت من ذاقه .
- رائع وفلسفي . في الحقيقة الخمرة والتدخين من العوامل المساعدة . ولكن أمراض المعدة ، بشكل عام ، مرتبطة بالأعصاب تفضل ، تمدد .
- ولما انتهى من جس بطنه ، وعرف مواقع الألم ، سأله ، وهو يتجه إلى المفصلة ليغسل يديه ثانية :
- عند مَنْ كنت تعالج ؟
- تردد السيد معروف في الجواب . هل يقول له اسم الطبيب الذي يعالج أمه . ولكن ذلك مختص بأمراض القلب . كره التردد ، وقال بصراحة :
- لم يكن لي ترف استشارة الطبيب .
- ها ، تعتبرها ترفاً؟ من الكماليات كماء الكولونيا؟
- وضحك الطبيب ضحكة صافية ، وهو يمسخ يديه بالفوطة ويتجه نحوه .
- أقصد الميزانية لا تساعد .
- نعم ، الميزانية ، بالضبط . والمصيبة أن العلل تلتصق بضعاف الميزانية .
- خجل السيد معروف أن يكشف أوراقه ، فلربما يتصور الطبيب أنه من مراجعي يوم الجمعة ، وقد أخطأ اليوم ، وجاء يستشير مجاناً .

قال مصححاً الانطباع :

- الحقيقة أن أُمِّي تستهلك كل الفلوس التي يمكن أن تخصص لهذا الباب .

- مريضة مزمنة؟

- تقريباً .

- هناك أمراض يمكن أن تعتبرها ملازمة للشيخوخة ، ولكن لا توجد أمراض يحق لك أن تعتبرها ملازمة للشباب .

- إعتبر السيد معروف الكلام موجهاً له ، فقال :
- لست شاباً .

- وحتى الكهولة . لست أكبر سناً مني ، كما أرى .
- الأعمار بيد الله .

- حكمة يرددها الناس تلقائياً . في الحقيقة انهم ينسبون إلى الله مسائل تخص عجزهم .

لم يرق للسيد معروف هذا المنوال من الحديث قال بصراحة :
- هل هذه محاكمة أم جلسة سفسطائية؟
- نهايتها .

- وانكمش الطبيب في قوقعة رسمياته :
- الاسم الكريم؟

- معروف عامر الدواليبي .

- ماذا تشتغل ، يا سيد معروف؟
- كاتب طابعة حالياً .

- حالياً؟ ماذا كنت تشتغل من قبل؟
- كاتب تحرير .

- ولماذا غيرت عملك الأصلي؟

- قضية طويلة .
- يخيل اليّ أن عملك لا يناسبك .. تبلع الكربون . أليس كذلك؟
- ليس الكربون وحده .
- آها . فهمت . غيره ، إذاً .
- بسط السيد معروف ذراعيه ببداهة :
- ومن أين أعيش إذا؟
- أخرج الطبيب . عبث في الساعة . ونقل علبة دواء إلى موضع آخر .
- أحسنت . هذا سؤال مطروح منذ بدء الخليقة : من أين أعيش؟ - وأطرق الطبيب وصمت مفكراً ثم قال - يؤسفني أن الأطباء لا يستطيعون الإجابة عن ذلك . ولكن ألا توجد إمكانية للإنتقال إلى عمل آخر؟
- لا ، هذا آخر معقل .
- لطيف . فهمت .
- أرجو ألا تؤول الأحاديث .
- لا ، قطعاً .. تريد أن تقول؟
- لا أريد أن أقول شيئاً . هذه المسألة . لا أريد أن أقول شيئاً .
- بحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسیه معمماً . أبدأ ، والله ، أنا حاسر الرأس .
- هذا رأيك . من حقك أن تلبس عمامة ولا تلبسها .
- لا ، ليس لي رأي .
- في أي شيء؟
- البتة ، وعلى الإطلاق .
- حتى معدتك؟

- لعننا الله ، وهل يهملها رأيي؟
- يهملها بالتأكيد .
- لو كان يهملها رأيي لسمحت لي بأن أذوق أشياء كثيرة أحبها .
- معدتك تاريخك .
- تاريخي؟ وهل لي تاريخ؟ هل أنا محقق أم طبيب؟
- العفو ، العفو . يمكنك أن تسكت ، مثلما يمكنك أن تتكلم . لكن الكلام ، بشكل عام ، أروح من السكوت ، من الناحية السايكولوجية ، على الأقل .
- سكت السيد معروف قليلاً ، ثم قال :
- ربما أنت محق . حين أنفَسَ عما في صدري أرى ابتسامات حلوة وعيوناً حدوبة . ولكن ذلك يحدث بشكل عفوي ، ومفاجيء ويسبب لي مشاكل أنا في غنى عنها ، فتهتحول رؤياي إلى مستمسك جرمي .
- ها ها ها .. مستمسك جرمي .. لطيف ، لطيف .
- وقد نُثِرَت حوالي مستسكات جرمية كالألغام . هل قرأت كتاب «يوميات نائب في الأرياف»؟ يقول النائب إنه نصب مصائد الفئران حول سريره في الريف ، كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر .. أنا أيضاً ، ولكن لا أنصب الغاماً واقية ، بل الغاماً ناسفة .
- هل تقرأ كتباً كثيرة؟
- سابقاً قرأت الكثير .
- والآن؟
- لا .
- فقدت الرغبة؟
- في كل شيء .

- وهل ذلك بسبب وجع المعدة؟
- لا أعرف، ولكنني إنسان فقد الطموح منذ زمان.
- لماذا؟
- لا أدري. عندما كنت كاتب تحرير حاولت أن أفعل شيئاً صغيراً أقدر عليه، بنتيجة قراءاتي الكثيرة، وهو تشذيب لغة المكاتبات الرسمية. ولكنني صُددتُ أشنع صد، ونقلوني من كاتب تحرير إلى مجرد كاتب طابعة أقوم بعمل روتيني ممل.. وحتى هذا بدأ يتزعزع أمام عيني.
- سميته آخر معقل.
- نعم، نعم، آخر معقل.
- كيف تسميه إذاً، إذا كنت لا تستطيع أن تدافع عن نفسك؟
- أقصد آخر ملجأ، وبعده أرض الله الواسعة. الغروب. الشاطئ. والإبتسامات الحلوة العابرة.
- لطيف.
- حدِّق السيد معروف في الطبيب أمامه، وقال:
- ها ها ها.. لطيف.
- كان الطبيب يضحك ضحكات صافية رنانة خُيِّل للسيد معروف أنها نابغة من أعماق قصوى لا يستطيع النفاذ إليها. وكانت الإبتسامة العريضة بعدها تُلوّن كل ملامح الطبيب البدوية الحشنة على ما فيها من طفولية وعدوبة وعفوية. عقد الطبيب ما بين حاجبيه، وسلَّط عليه ألقى عينيه ال.. ال.. حدوبتين وقال وكأنه يبدأ بداية أخرى:
- كيف وجع معدتك الآن؟

سكت السيد معروف ، وكأنه يبحث عن بقايا الألم الذي جاء إلى الطبيب بسببه .

- يبدو أنه خف .

- شفت ؟ التنفيس نوع من العلاج الطبي . ولكن من يسمع من يقرأ ؟

- ستعالجني بالتنفيس ؟

ضحك الطبيب ضحكته الصافية .

- لا أنا أبحث عن الأوليات .

- لتصوغ المستمسك الجرمي ؟

- هل يصح أن يُقال المستمسك الجرمي ، بدلاً من ذلك ؟ لقد هبطت

عليّ ، يا سيد معروف ، خالي اليدين ، لا كشوف ولا تحاليل ، ولا

تقارير عن تاريخ المرض . فكيف تريدني أن أتصرف ؟ أصف لك

مسكناً أو دواء يساعد على الهضم ، وأدعك تنصرف ؟ لا ، لا أحب

أن أفعل شيئاً من هذا مع أي شخص ، لا سيما مع شخص مثلك .

طبعاً ، أنا لا أطمع في أن أحل مشكلتك الخاصة حلاً جذرياً ، كما

يقولون في هذه الأيام ، وحتى حلاً شاملاً . يأتيني إلى عيادتي

المتواضعة هذه كثيرون من أمثال السيد معروف بمعد موجهة أو

بغيرها من أمراض الأعصاب المسحوقة والميزانيات الضعيفة . فأصف

لهم هذا الدواء أو ذاك ، ويفيدهم بدرجات متفاوتة . ولكن يبقى ما

لا أستطيع تغييره بمفردي .

- الأسباب الموجبة ؟

- لطيف ! الأسباب الموجبة . أنت ذكي ، ولا تخلو من روح النكتة .

- أرجوك .

- خفيف الظل ، كما يقول أهل مصر .

- إستعملت هذه الكلمة في إحدى المكاتبات الرسمية فرفضوها
وقرَّعوني .

- ها ها ها ، لطيف . ماذا كتبت ؟

- كتبت : عربات الركوب الخفيفة الظل تراحم باصاتنا في بعض
الخطوط . فقد كانت تحمل الركاب بالنفقات . إتهموني بحبابة الجهة
المزاحة .

- ها ها ها ، لطيف .

- لطف منك أن تصفني باللطف ، يا دكتور .

- ألا تساعدك روح النكتة على مقارعة المنغصات ؟

- بالعكس ، تورطني .

- عند ثقال الظل ؟

- ومن لا ظل له على الاطلاق .

- لطيف .

- أشكر حسن ظنك .

- المهم في مرض المعدة هو ألا تهون عزيمة المريض - قال الطبيب
بجدية تامة - عزيمته في أن يجد في حياته ما يصرفه عن أوجاع
المعدة .

- أين يجده على الشاطئ ؟

- الهواء الطلق مفيد أيضاً ، والشمسي .

- إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان ؟

- ها ها ها . وهذه أيضاً . كل ما يبعث على الارتياح وهدوء البال .

العزيمة ، يا سيد معروف ، العزيمة . وإذا ذُبُلَت هذه العزيمة أو نَحَلَت
ذُبُلَ الجسم كله ، وتكالبت الأمراض عليه . روح المقاومة - وضَمَّ
الطبيب قبضة يده ، وأرسل ذراعه الضخمة إلى الأمام بحركة

عناد - رمز العافية الروحية . والعافية الروحية تنعكس بالتأكيد على صحة البدن .

- العقل السليم في الجسم السليم؟

- بالتأكيد . ولم لا؟ روح المقاومة توفر المناعة حتى للأعضاء العلية ، فتقارع المرض .

- وتغلق الصيدليات . ألا يهاجمك أصحاب الصيدليات على بث روح المقاومة .

- هاجني الأطباء ، حين خصصت يوم الجمعة لمعالجة ذوي الدخل المحدود مجاناً .. نفس النظرية .

قال السيد معروف ما كان يدور بخلدہ :

- من حق الأطباء والصيدلة أن يكرهوا الأصحاء والموتى .

- ها ها ها . لطيف .

- مثلما من حق الاستاذ عبد الرحيم أن يكره القواعد والصرف .

- مَنْ الاستاذ عبد الرحيم هذا؟

إنتفض السيد معروف على هذا الأسم يتردد على لسان آخر . فقال متراجعاً :

- لا أدري . هل نطق بهذا الاسم؟ العفو . كنت أهذي . إنس الموضوع .

- حسناً . نسيته . إعتبره منسياً .

- ولكم في النسيان حياة يا ذوي الألباب .

- في القصاص ، يا سيد معروف .

- المعنى في بطن الشاعر .. أقصد نسيان الآلام .

- وحتى الشدة نافعة أحياناً . اشتدي ، أزمة ، تنفرجي ..

هذا وان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطَم

ليس براعي إبل ولا غنم ولا يجزار على ظهر وضم

- من زيم هذه؟
- ناقة.. ولكن بيد سائق شديد المراس.
- إذاً، ستنفرج بالتأكد.
- والألغام الناسفة؟
- العزيمة، العزيمة، يا سيد معروف.
- على رأسي. من أية صيدلية اشتريتها؟
- شيء يُحضّر في مختبر النفس.
- ويصدر إلى الخارج؟
- لا يصدر.
- لا يباع ولا يشتري ولا يصدر؟ هذا أنا، إذاً. شكراً، لك، يا
- دكتور. أهديتني إلى طريق العزيمة، مهما تنطوي عليه من مستمسك
- جرمي، أو أي لغم من الألغام الناسفة.
- الأساس هو الثقة بالنفس.
- والعزيمة يمكن أن تُحضّر في مختبر ذوي الميزانيات الضعيفة أيضاً.
- بالتأكيد.
- إسمح لي أن أقبلك.
- ها ها ها. تفضل. إستفد من كل الامكانيات المتوفرة لك. الحياة
- لا توهب إلا مرة واحدة...
- شكراً، يا سيد موفق.
- إسمي طاهر توفيق.
- شكراً، يا دكتور طاهر.
- لا شكر على واجب. ومنّ موفق هذا؟
- شخص من عباد الله.

- الصالحين أو غير الصالحين؟
 - لا أدري حتى الآن . كم معاينتكم ، يا دكتور طاهر؟
 - مع القبله أو بدونها؟
 - بها أو بغيرها .
 - لا شيء .. أعتبره حديثاً ودياً .
 - وكيف أرد لك الفضل؟
 - سلّم لي على موفق .
 - أها شكراً . إن الطيور على أشكالها تقع .
- شيعته ضحكة الطبيب الرنانة . هبط الدرج على عجل . تلفت قبل أن ينزل إلى الشارع . أعوج أعرج أهوج ، بالمستعسكات الجرمية مدجج ، يُهزَم ولا يخرج . ما هو؟ حظي الأفلح . أعوذ بالله ، بصريح العبارة ، أعوذ بالله . كأن الدكتور طاهر توفيق أعد العدة ، وشحذ اللسان لاستقبالي . وأنا ، أيضاً ، عفت جميع الأطباء ، وطرقت بابه! وافق شَنّ طبقة ، تحب رجلي الفلقة ، والليل يغزو مَلَقَه . ويكفن شاطيء قلبي بالذنوب . وفي الماء عيون الذئب . وفي المعدة شفرة سكين ، وفي القلب لوعة وحنين . أين أنت ، يا ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين؟ اليوم موعدكم فأين الموعد؟ هيهات ليس .. ماذا ليس؟ نسيت البيت . كهولة! كهول تساموا للعلی وشباب . مرة أخرى قافية المتنبي؟ ولكن يا سيد معروف ، وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيئه ، ولو أنَّ ما في الوجه منه حراب .. أوه ، نعم ، بلى .. كأن المتنبي المنكود يقصدي مع ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين ، وللخلود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب .
- ستمع رئيس الحب في قلبي . إنتهى . قُضيَ الأمر ، ولات حين رجوع! لقد تصبّرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم .

أين؟ ليس لي مقتحم غير المقهى . وأغلقت الأبواب وقالت هيت لك .
استقر السيد معروف على مقعده في مقهاه . وتأوه ماسكاً معدته التي
ما زالت تتمزق في جوفه . نسي حتى أن يسأل الدكتور طاهر أن
يعطيه مهدئاً أو مهضماً أو أي شيء يجعله يفرغ معدته مزقاً دامية . ما
أنت إلاّ معدة دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت . العزيمية ، يا سيد
معروف ، العزيمية . فلمّ جيد من تمثيل السيدة فاطمة رشدي ، أيام كان
يفشى دور السينما ، أيام كانت تتملكه الرغبة في الفرار من جلده ،
فيخرج إلى الشارع ، ويصطدم بالروائح والصدور والاكتاف ، ويشبع
غباراً وزفرات وحسرات . ثم يعود إلى بيته مكللاً بخيبة الهزيمة ،
ويدفن رأسه بين دفتي كتاب ، ويحلم بأشياء جديدة ، مدن ، جزر ،
بحار ، حقائق ، شعوب ، عوالم فاتنة . العزيمية ، يا سيد معروف ،
العزيمية . وإذا ذبلت ، ذبل الجسم ، وقصرت الرقبة الطويلة
وانقصفت . الله يقصف ظهرك ، يا استاذ رحيم! ورطنتي! عفواً! هل
نطقت بهذا الاسم؟ إبتسامة حلوة وعينان حدوبتان . رهبان مدين
والذين عهدتهم سيكون من حذر العذاب قعوداً . لو يسمعون كما
سمعت حديثها . . ماذا سمعت؟ لم أسمع شيئاً . مرت كالطيف . دون
أن تنبس ببنت شفة . راح ، حظي العاثر . زال . لاحقه الآن غباراً
تذروه الرياح؟ العزيمية ، يا سيد معروف ، العزيمية . شيء يحضر في
مختبر النفس . تنور في جوفي وليس مختبراً . تنور الزيات . من زيات
إلى وزير ، إلى قاتل إلى قاتيل . شكراً لك ، يا دكتور طاهر . بثثت
فيّ العزيمية ، أو بالأحرى نبهتني إلى نفسي . الثقة في النفس . لست
أعور ولا أحول ولا أعرج ولا مشطور الشفتين . وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى . والحياة ، يا سيد معروف ، توهب مرة
واحدة . سمعت ، بذلك ، سمعت . بابتسامة حلوة وعينين حدوبتين

أو بغيرها وبخلافها . مع قبله أو بغير قبله ، بأم عمياء مترملة ، أو بأم مفتحة العينين يكلكل عليها زوجها . بأخت أو بغير أخت ، عانس أو متزوجة . تريدن رجلاً؟ لماذا لا تريد؟ من يدري ماذا في قلبها؟ ربما تحن إليه؟ إلى موفق . تقول بصريح العبارة أو بلبس العبارة ، أو بغير عبارة على الإطلاق : كسرتم رقبتى . لماذا رفضت موفق ، يا أمي؟ وهل أنا مذنبه لأن أحداً لم يأت لخطبة مرهونة؟ إنتظري حتى تتزوج أختك الكبرى . ومتى تتزوج أختي الكبرى؟ يوم ينفخ في الصور؟ الشرف ، يا محبوبة ، الشرف . لا نللك في الدنيا غير الشرف ، وتريدن أن تسليه منا؟ خطبة عصماء ، براء . كيف افلتت هذه الجملة مني؟ الشرف . إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . لن أنضم إلى فرقة الإنشاد ، مهما كلف الأمر . وفي النفس حاجات ، وفيك فطانة . أبداً ، لا فطانة . سكوتي بيان عندها وخطاب . لا يريد السيد كاظم أي بيان . يمكنك أن تحرك شفتيك فقط ، بلا صوت ، وتكسب الأجرين . حتى شفتي لا يمكن أن تتحرك . يمكن أن تتحرك في البداية ، ثم تشد عن السوط ، أقصد عن الخط ، أقصد .. لا أقصد شيئاً .. لا تتحرك وكفى .. المؤمنين القتال .. قتال صامت أو صاخب ، معلن أو غير معلن ، خلف منضدة تحرر فيها الكتب المشدبة المنقحة ، أو خلف آلة كاتبة قديمة تستنسخ الكتب الركيكة العبارة ، المسوحة المعاني والتعابير ، بأخطاء نحوية أو غيرها . ما هذه العداوة ، استاذ عبد الرحيم ، ما هذه العداوة؟ هل تعرف ما نسمى بلغة التراث؟ كتاب الدواوين . نعم ، نحن كتاب الدواوين ، يا استاذ عبد الرحيم . وماذا يبتغي الكتاب مني وقد جاوزت حد الأربعين؟ والاستاذ فخر اللغة العربية أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حرر ابتسامة .. أقصد

رسالة حلوة .. أقصد ممتازة في ذم أخلاق الكتاب ، المحررين حالياً ، من أمثالي وأمثالك ، نعتهم فيها بأشنع النعوت ، وشبههم بالكلاب الهرمة التي يمر بها أصناف الناس ، فلا تحرك ساكناً ، وإذا مرّ بها كلب من أمثالها ، حتى ولو كان هراً مثلي ، نهضت ، ولا تستقر حتى تفتك به . فلماذا ، يا استاذ عبد الرحيم ، لماذا ، يا أيها الكلب الهرم ؟ لماذا تريد أن تقتلني ؟ جعلت فداك ؟ خيرتني بين الجهل والعى ، وما فيهما حظ لختار . أوه ، يا أسد . إنّ البغي مرتعه وخيم ، والظلم يصرع أهله . هل كتب علينا أن نكون من أولئك القوم الذين شتمهم أحد أبنائهم حين قال : كانوا أقل الناس ذنباً إلى أعدائهم ، وأكثرهم جرماً إلى أصدقائهم ؟ وهل كنا أصدقاء يوماً ما ؟ لم أرد أن ازاحمك ، والله العظيم ، لم أرد قسماً بالله . كنت أريد أن أقوم بشيء ما . لماذا قرأت الكتب ، وصاحبت موسى بن نصير وطارق بن زياد في غزواتهما الموفقة ؟ والجاحظ في رسائله ومحاسنه وأضداده ، ورحلته السندبادية في عالم البخلاء ؟ وعرفت منه فخر السودان على البيضان والجواري على الغلمان ، ودرست معه خصال البغال ، وعرفت أنهم يشبهون الأسد بالبغل ، إذا كان الأسد تامّ الخلق . فهل ستزعل مني إذ أشبهك بالبغل ، يا أسد ؟ أو بالأسد ، يا بغل ؟ وحين عدد الله أصناف نعمه ، كما يروي الجاحظ ، قال في القرآن : .. « والخيول والبغال والحمير » . وكان عليّ أن أتمسك بذيل البغل ، باعتباره من نعم الله ، .. ولكنني تهاونت وتماديت ، ولم أدر أنني سأبيع البغل حين أبدأ بالسرج ، وأنحدر إلى كاتب طابعة حين أشطب على كلمة « الموماً إليه » . ولكن المكروه قد وقع ، والناس في صعود ونزول ، ونشاط وخول . والاستاذ طارق بن زياد ، بعد غزواته الموفقة ، مات مغموراً مطموراً ، وصار نسياً منسياً ، ولم

يذكره أحد من المؤرخين . والاستاذ موسى بن نصير أهين وعُذِّب ،
وجُرِّد من أمواله المنقولة وغير المنقولة . . ومنها بغال كثيرة ، بالتأكيد
ولو كانت له آلة طباعة قديمة لصودرت أيضاً ، ولما وجد شيئاً يدق
عليه كتابنا وكتابكم بعد وقوع المحذور : إسكت ، يا سيد معروف .
قدك أُنْتَب ، أرييت في الغلواء ، كم تعذلون وأنتم سجرائي . سجرء
أو غير سجرء ، في كرة القدم أو في فرقة الإنشاد . كلها محسوبة
ومكتوبة ، وفي اللوح المرقوم . بتفكير وبدون تفكير ، وإلى الله
المصير . سواء أكان مصير طارق بن زياد أو موسى بن نصير . فالحياة
توهب مرة واحدة ، بعيش مرفه أو بعيش عسير ، على أن لا تكون
حياة حير .

وبهذا التعميم نهض السيد معروف من مقعده ، وتقلقت مصارينه
من الرجة ، وآلمته . يجب أن يذهب إلى الدكتور طاهر مرة أخرى
ليكتب له دواء مسكناً . كم هي الساعة الآن ؟ الغروب على جزر
الكناري .

إستقبلته ساعة أمه بدقات تسع . البيت ساكن سكون
الأضرحة ، في الليل ، خافت الضوء ، عفن الاحشاء ، تغني
الصرابير في زوايا الظلمة ، وتتنقل العقارب بحرية من ثقب إلى
ثقب . خرجت مرهونة من غرفتها . سمعت الأم وقع خطواته .
عندما تضعف حاسة تَعَوُّض الأخريات عما خسرته الحاسة المتضررة .

- معروف ، هذا أنت ؟

- نعم ، أنا ، يا أمي ؟

رفعت وجهها باتجاه الصوت ، أو باتجاه الرائحة . وهيأت يدها
لتلمسه . طوال حياتها ، ولا سيما الفترة الأخيرة منها ، تتلمسه ،
وكأنها تشك في وجوده ، وتريد أن تتأكد من ذلك باللمس .

- أين كنت؟
- حاولت ، يا أمي ، أن أبحر على باخرة من ضوء الغروب .
- وتركنا؟
- أبداً . تركت الباخرة مذعوراً من فراقكم . هل تعرفين كافور الأخشيدي ، يا أمي؟
- كافور؟
- كافور .
- من محلتنا؟
- لا . يدبّر الملك من مصر إلى عدن ، إلى العراق فأرض الروم فالنوب . قال عنه أحد شعراء العراق القلقين :
- وماكنت لولا أنت إلا مهاجراً له كل يوم بلدة وصحاب
- ولكنك الدنيا إليّ حبيبة فما عنك لي إلا إليك ذهاب
- فدوه لهذا اللسان الحلو .
- أين أذهب ، يا أمي ، وقد ربطني كافور الأخشيدي . أرجوك ، يا أمي ، لا تؤولي الحديث . أقصد هذه الوجوه الحلوة .
- ومرر ذراعه على أمه وأخته مرهونة التي كانت تنصت عند الباب . فنكست الأخت رأسها . وكأنها تشك بصحة انطباق وصفه على وجهها . تأثرت الأم وتلمست الفراش حولها ، وقالت :
- من لنا في الدنيا غيرك؟
- ومن لي أنا؟ أنا كأبي الطيب ، أغرب وأشرق ، ولكن سأعود إلى النعمانية ، بالتأكيد .
- ولماذا إلى النعمانية؟ هل عندك حبيبة هناك؟
- عندي . إسمها منية .

ونفض من حافة السرير الذي تتكور عليه أمه. مرّ بمرهونة ورأى عينيها تلمعان ببريق حبيس. همّ أن يسألها قبل أن تبادره بالسؤال عن عشائه: هل محبوبة هنا، أم تتفرج على التلفزيون عند الجيران؟ إلاّ أنه سمع حركة في الحجرة المجاورة، واعتذر في سره للخيبة اللئيمة. هل يطرق الباب، ويعتذر لها؟ أنا آسف، يا محبوبة، ظلمتك! لم أرد أن أهينك، لم أرد أن أنال من شرفك وبراءتك. ولكنه فضل أن ينجيها في سره.

- معروف...

- لا، أريد أن تطرقي لي طاسة لبن.

وسمع حركة مرهونة الصاخبة وراءه، تستجيب لطلبه. هذا بيته حقاً، فلئن يذهب منه؟ وإلى أين؟

شرب طاسة اللبن، وهو واقف قرب المرأة. كان وجهه صافياً يكاد يخلو من الظلال، فيه صلابة وإصرار وحمية. كأن العزيمة أخذت تتكون في قسامته المكتسبة تناسقاً يخفي عيب رقبتة. وكانت النار قد خمدت في معدته، وساد الهدوء خرائب الألم فيها. كان يحس برواق غريب، وكأنه يوشك أن يقبل على عمل مريح للضمير. كأنما وضع نفسه، لأول مرة، في قلب الصورة، حتى عاتب نفسه مرة على اغتيابه لأخته محبوبة. لماذا، لماذا تعتابها؟ هل لتوهم نفسك بأنك لم تشترك في تقرير مصيرها التعس؟ تلقي اللوم كله على أمك، لتبريء نفسك من أي ذنب. كأنك لم تكن سلبياً جداً، وجامداً، حين جاءت أم موفق لتخطبها منك، أنت أخوها الكبير، رأس العائلة، وأحلتها إلى أمك.. تبرأت رأساً: أنا لا أعرف، سألبس ما تفصله أُمي. وكأنك تريد أن تخفي موقفك الصريح من موفق، موقفك الخائف الأناني المتردد. سياسي! وأي مستقبل للسياسي في

هذا البلد! وحكمت على مستقبل أختك بالسجن إلى أبد غير مسمى، بمستمك جرمي وآه. سياسي! ولو كان الأمر قد تم، ومنحت لنفسك بعض الثقة، وأعطيت لأختك حرية الاختيار لكنت الآن خالاً، على الأقل، ل... ل... كم قال؟ لأربعة، أو خمسة، أبناء أختي، الله يخليهم. ناشف، يا سيد معروف، ناشف.. خشمك أو أنفك ناشف. قلبك صخر جلمود، ما حنّ عليّ. الحنين إلى... ولكنك الدنيا عليّ عزيزة.. ذهاب وإياب.. بره بار.. ونهايتها الشيخوخة واللاحق بخبر كان. كان يكون فهو كائن. هل أنت كائن، يا سيد معروف؟ ومن أين جاءتك هذه الكينونة؟ العدم استاذ عبد الرحيم لن أكتب لك مقالاً، حتى عن العدم. إنعدم فهو منعدم. معدوم أحسن، أكثر استخداماً.. من فضلك أسكت، خير لك أن تسكت، أن تنجب، أن تنكب، أن تفرغ معدتك من عصاراتها الكاوية، إذا أردت أن تأكل خبزتك، أو طاسة لبنك، جامدة أو مطروقة بأوامر الاستاذ عبد الرحيم، أو بارشادات السيد هاشم.. فعاليات تذيب عنكم الشحم. أين الشحم؟ بطني على ظهري، أو ظهري على بطني. ليس كمن رأى كرشاً يتبعه رجل أو بغل أو أسد أو أية نعمة من نعم الله، وأي كائن من خلقه. كان يكون فهو كائن. ستكون مجنوناً، ستكون، يا ريت أن تكون، لا أن تُكان. هل يصح أن يصاغ المبني المجهول من كان؟ لا، لا يجوز، لأنها فعل ناقص. ولكنها تكون كاملة أيضاً. لنسأل الاستاذ الزمخشري. الظريف الخفيف الظل. يعجبني أن أعرف. واتجه السيد معروف إلى زاوية تترام الكتب فيها. عليها طبقة كثيفة ك و ب : كوب خمر. يا ريت! قاتل الله المعدة. ك و ح : كاوح. لا أعرف. ك و ر : كير، موقد النار. كلنا لها. ك و ز : أغترفه بالكوز. ك و س : كوسه

الله بالنار . هل رأيت؟ أينما وليت رأيت النار ، حتى قبل أن تصل إلى النار الأصلية ، نار القيامة . تمرين إجباري! فعاليات . ك و ف . ك و م . ك و ن . هذه هي كانت الكائنة والكوائن . قال سويد : فلما التقينا وكان الجلاء ، أحبوا الحياة فولوا شلاً . هروباً من الفعاليات ، أو أي شيء آخر قاصم للظهر . « وأخبرني بالكائن عندك » لا ، لن أخبرك . لا أريد مستمسكات جرمية أخرى . « كون الله العالم » أحدثه فتكون . هذا من حقه كخالق ، لا أحد ينازعه في ذلك . وتقول أقفرت الديار وكأن ما يسكنها أحد ، أي لم يكن بها . مثل الشاطئ .. أقفر من ذات الإبتسامات الحلوة ، والعينين الحدويتين .. « وتقول إذا سمعت بخير فكنه ، أو بمكان خير فاسكنه » .. سأحاول أن أطبق هذه المعادلة ، يا استاذ زمخشري . شكراً ، على الاستشارة ! لا ، يجب أن تكون نفسك بنفسك . ولكي ما كل ما يتمنى المرء يدركه ولا كل ما يريده يكتنه .

أعاد الكتاب فوق تل الكتب المهجورة .. سأغسل يدي . تلوث . إذا دخلها الغبار تقرحت ، وإذا دخلها الكربون تعفنت ، وإذا لم يدخل شيء ثارت . فضيحة!

فراش مريح . طقطقت له عظامه . أين الوجع؟ هنا؟ هنا؟ هنا؟ لا أدري ، كل المواضع موجعة . معدتك تاريجك . لا أظن لي معدة ولا تاريخ . مجرد جرح موجع . ولكن ما الجرح بميت إيلام . يعني أنا حي أتألم فأنا حي . وهذه نعمة من نعم الله أيضاً . نعم ، يا سيد معروف ، قرير العين .. نعم .. آه .. تئاءب عمر ..

سبع دقائق من ساعة أمه . ونهض السيد معروف على عجل . وجد الشاي مهيباً . مرهونة تستيقظ قبله . لو كان لها بعل كانت ..

ارتاحت معدته لمذاق الشاي الساخن ، ونكهة الجبن المنقوع . ولم تعم عليه . واكتفت بالقرقرة والتجشوء والحشرة الناعمة الخفيفة ، فلم يعبأ لها كثيراً حتى بعد أن تأوهت متأثرة بالدحس الروتيني في السيارات العامة . وكان السيد معروف مسيطراً عليها ، وعلى كامل قيافته ، وحتى على زر سترته الذي انقطع من اليسار أثناء الخروج ، فتلقاه باليمين . مثل رآية رفعت لقوم . ودخل الدائرة منشرح الصدر . محلول عقدة اللسان ، يردد في سره : لست أعور ، ولا أحوّل ، ولا أعرج ، ولا ألثغ ، ولا أعجم ، ولا مشطور الشفتين . نعمة . وشمر باعتزاز وفخر . حتى استطاع أن يفتح غرفة المحاسبة ، وهو يردد قول النبي العربي بينه وبين نفسه : « مسكين مسكين رجل لا زوجة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها » وأطل على الجنس اللطيف إطلالة خاطفة تقول : أنا هنا . وإن كانت لا تفني بالفرص ، فقد اختلطت أمام بصره الوجوه الرجالية والوجوه النسائية ، تصفيفات الشعر والصلعات ، الشوارب ولُغس الشفاه ، النهود الزنود . لم يدر من المقصود في قول زملائه في غرفة الطابعة : إنها تصلح زوجة له . عيونها وسبعة ، وشعرها كالدجى . حقاً ، كان اللون الأسود هو الطاغى .

صعد الدرج بحفة . وبادر فراش المدير قبل أن يبادره :

- لا ، لست ببلجنة النشر ، ولن أكون .
- على كيفك ، يا سيد معروف .
- إنتهى وقُضي الأمر .
- الأيام بيننا .
- لا تهددني بالأيام ولا بشهر الصيام .
- واندفع إلى غرفته بحركة اقتحامية جسور .

- صباح الخير ، يا جماعة ...
- صباح الزردة والحليب .
- نفا ...
- ولم يكمل جلته المعتادة ، اتجه بخطى ثابتة نحو منضدته ، ورفع
النفاضة عنها ، وفتح النافذة ، والقاها في الشارع .
- ما هذه الحركة الاستفزازية؟
- مخالفة قانونية صريحة .
- إستهانة بأموال الدولة .
- قال بصوت ثابت :
- سيكون ذلك كل يوم ، إذا وضعتوها على منضدتي ..
- مع سبق الاصرار .
- حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .
- وجلس على منضدته شاعراً بالعيون مصوبة إليه . صفّ أربع
أوراق واضعاً بينها الكاربون . وحشر التشكيلة في شق الآلة
الطابعة ، وخرط ، وعدّل ، ودقّق ، واستعد لطبع كتابنا وكتابكم .
- لا ، يا سيد معروف ، هيء طابعتك لطبع قوائم الحسابات .
- أهذا قصاص؟ أنت تعرف أنني لا أطيقها . خطوط ومربعات
ومستطيلات .
- أنا أعرف لماذا تتضايق من قوائم الحسابات .
- أرجو ألا تؤول ، يا سيد هاشم .
- النية واضحة .
- ليست لي أية نية .
- لا تريد أن تعمل .
- لا ، أبداً . آلتى في الانتظار كالعربة الكسيحة .

- مصيبتك أنك تستخدم خيالك أكثر من اللازم .
- قال عبد اللطيف :
- وساوس الشيطان .
- السيد مطر :
- مادة الذكاء الأثرية .
- صاح السيد هاشم :
- لا تصدقوا . مجرد هروب . هناك عملية خبيثة تجري في ذهنه .
- أية عملية؟
- عملية تحول . تصوروا ، بدلاً من أن يكتب الموضوع : تحويل خط ،
- كتب الموضوع : تحويل تفكير .
- خلق به السيد معروف :
- يعني كنت تعرف خطأي ، ولم تنبهني عليه؟
- ولماذا أنبهك عليه؟ أترك الرئاسة تكتشف الجرم .
- سيد هاشم ، لا تسرف في إدانتي .. لا تسرف ..
- والظاهر أن لهجة السيد معروف كانت قوية جداً ، حتى أن
- السيد هاشم صمت محرجاً ، وبعد ذلك حوّل الموضوع :
- المهم أنت تحب التلاعب . ولهذا تكره قوائم الحسابات ، حيث لا
- مجال للتلاعب .
- لا ، أبداً . كل ما في الأمر أن آلي القديمة ترفض الاعتراف بأن
- الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين .
- لا ، أنت تريد شيئاً تدس فيه أنفك ، تريد أن تغير في لغة
- المكاتبات الرسمية .
- اقلعت عن هذه العادة السيئة منذ زمان .
- لا أظن . ترج أنفك فيما لا يعنيك ، وتهرب مما يعنيك .

- ما هو هذا الذي يعنيني وأتهرب منه؟
حقد السيد معروف في وجه السيد هاشم ، وأوقف كُتَّاب
الطابعة الدق على آلاتهم ، يريدون أن يعرفوا هذا الذي يتهرب منه
السيد معروف .

قال السيد هاشم بتحدٍ :

- الفعاليات .. اليوم آخر موعد للتسجيل فيها .

بهت السيد معروف ، بينما اطمأن الآخرون على براءتهم من
هذه التهمة . التهم إسفنج الصمت هواء الغرفة ، فأحس السيد
معروف بالضيق ، فسأل مختنقاً بندرة الهواء :

- هل أنت جاد يا سيد هاشم؟

- بالطبع . اليوم آخر موعد للتسجيل .. لقد نبهتك .

- لا ، أقصد هل أنت جاد في مسألة الفعاليات؟

- جاد بالطبع ، كمادة من مواد القانون .

- دفعتها بصفة القانون .

- لا تطعن بالتوجيهات .

سارع السيد معروف لينفي هذه التهمة :

- أنا لا أظن بالتوجيهات ، ولكن أسألك بضميرك : هل أنت جاد

في مسألة انطباقها عليّ ، أو صلاحيتي لها؟

- ولم لا؟

قال السيد معروف في ضيق شديد متشبثاً بقلبي سترته :

- بربك : هل أصلح أنا لأكون ممثلاً على المسرح أو لاعب كرة قدم ،

أنا الذي كنت أتهرب من الرياضة في المدرسة ، وما أزال أكره أعمال

السخرة .

- هل سمعتم؟ يعتبرها من أعمال السخرة . عملية تحول خبيثة تجري في أعماقه .
- ليست هناك أية عملية تحول . أؤكد لك . ما أزال ذلك الموظف النؤوب المنكب على آلتة الطابعة .
- ولم كل هذه المماحكة ، إذاً؟ .
- أريد أن أسألك : هل أنت جاد في انطباق التوجيهات عليّ؟
- قلت ولم لا؟ فمن يدري ماذا يوجد في بئر نفسك المظمورة؟
- رجعنا إلى المظمورات . يا أخي ، أنا حقل نفط ناضب ، والله العظيم ، ناضب . دعوني مكلكلاً على عائلي .
- قال السيد عبد اللطيف مخففاً على السيد هاشم عباه
- لماذا ، يا سيد معروف ، تتمسك بالمعنى الحرفي لهذه التوجيهات؟
- قال السيد هاشم متشبهاً بالفكرة :
- نعم ، ولماذا ذكرت كرة القدم والتمثيل؟ كأننا لا يوجد سواهما من الفعاليات .
- فرقة الإنشاد؟ عرض عليّ أحد الظرفاء أن أنضم إلى فرقة الإنشاد ، واحرك شفتي بدون صوت .
- سارع السيد كاظم ليقول :
- أنا لم أقل ذلك .
- لا تغضب ، يا سيد معروف ، ليس هذا فقط .
- أكد السيد هاشم :
- المهم أن تكون روحك معنا .
- إذا كان الأمر يتعلق بالروح ، فهي معك بالتأكيد . وهل يحتاج ذلك إلى تدليل .

- وأن تنذرها للمصلحة العامة .
- منذورة ، منذورة منذ الطفولة . أمي تقول : لقد خلقت منذوراً .
- هذا هو المهم . ولكن يحتاج إلى إثبات ملموس .
- أحس السيد معروف بأن فمه يحف ، وقال في نفسه : هذه بداية هيجان المعدة .. العصارات تأكل جدرانها . وتأفف وقال بصوت مسموع :
- أوه ، أي كابوس ، أي كابوس .
- قال السيد هاشم مشهداً زملاءه :
- إسمعوا . يقول كابوس .
- يا أخي . الكابوس في داخلي . معنقي كابوسي .
- وكان يشير إليها كما يشير إلى دملة متقيحة ملتهبة ، مختفية وراء حجاب قاس . وقال لنفسه حين عادت الآلات إلى القرقة : سأذهب اليوم إلى الدكتور طاهر .. سأذهب .. الغروب يذبح في معنقي ، ويسلخ . إلى متى ، يا دكتور طاهر ، سأعيش على معدة متقرحة ؟ الأديانين ، أو الأديريتين ، لا أعرف اسمه بالضبط زادت نسبته بالدم . يغلي . العن أبا الغلاء لأبي الغليان لأبي صريح العبارة . أين أنت الآن . يا ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين ؟ مسدي على معنقي .. هديها .. ستشور عليّ .. سأثور
- سيد معروف . حضرة المميز يدعوك .
- حاضر .
- يخس أن العيون تعلقت به كالعادة . أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر مميز إذا دعا . بارد الزنبور . أستغفر الله ، أستغفر الله .
- نعم استاذ عبد الرحيم .

مدّ الاستاذ عبد الرحيم يده دون أن يرفع رأسه عن الأوراق
الموضوعة أمام عينيه .

- ماذا ، يا استاذ؟

- المقالة .

- ها ، المقالة! أنا آسف ، يا استاذ عبد الرحيم .

نظر إليه المميز من تحت النظارة . عيناه من تحت النظارة
السميكة تجوفان قبيحان ، بثرتان أو دملتان حمراوان ، أو أي شيء
آخر غير العينين البشريتين .

- ما هذا الأسف؟

- لأنني نسيت .

رفع المميز كل قامته ، واتكأ بجذعه على ظهر الكرسي .

- ماذا قلت؟

- نسيت ، يا استاذ عبد الرحيم .

- ولكنني متفق مع سيادة المدير ..

- أعتذر .

- أهذا كلام عاقل؟

- أرجو ألا يكون ذلك . ولكن النسيان قد وقع .

- ولكن كيف نسيت؟

- نسيت . أنت تعرف أن الانسان من النسيان ، وليس كفراً أن

ينسى الانسان ، يا استاذ عبد الرحيم .

- في هذه الحالة كفر .

- ربما سأكفر عن الكفر غداً .. أقدم التوبة .

- ولكن اللجنة تجتمع اليوم . أخرت اجتماعها إلى اليوم من أجلك .

- من أجلي أو من أجلك ، ولكن النسيان قد وقع .

- ومع ذلك فأنت لا تقدم كلمة قاطعة .
- ومنْ يستطيع أن يقدم كلمة قاطعة؟
- عجب أمرك هذه الايام ، يا معروف .
- ليس النسيان من الأمور العجيبة ، وإلاّ فماذا تُسمي الأمور العجيبة الأخرى؟ ليس أداة جرمية على أية حال .
- أسألك سؤالاً صريحاً : هل نسيت أن تتعشى البارحة؟
- بل أكثر من النسيان .
- كيف أكثر من النسيان؟
- كرهت الطعام ، يا استاذ عبد الرحيم .
- غير لذيذ فكرهته؟
- لا ، يا استاذ عبد الرحيم ، بل لأن معدتي كانت توجعني فذهبت إلى الطبيب .
- هزّ المميز رأسه في حيرة من أمره ، وقال :
- هذا باب جديد ، الذهاب إلى الطبيب .
- نعم ، يا استاذ عبد الرحيم ، باب جديد وثقيل على الميزانية .
- من يدري! ربما يتكرر اليوم .
- سكت السيد معروف . فسدد المميز إليه نظرة مدركة .
- لا أضمن لك أن لا يتكرر ، يا استاذ عبد الرحيم .
- كيف لا تضمن؟
- لأنني بالفعل نويت الذهاب إلى الطبيب ثانية . إذا انفتح باب في الميزانية لا تستطيع أن تغلقه فتستريح .
- لا أعرف النغمة الجديدة التي تتحدث بها .. ميزانية! كأنك دولة قائمة بذاتها . أريد أن تعذني : هل ستكتب المقالة غداً؟
- الله يعلم ، يا استاذ عبد الرحيم .

- ستورط نفسك .
 - الله يعلم .
 - تضعها في تهلكة .
 - الله يعلم .
 - إسمع ، يا سيد معروف ، هل أنت تسخر مني ؟
 - الله يعلم .
 - كفى .. ستعرف كيف الله يعلم .
 - لا أحد يعرف كيف الله يعلم . هذا من شأن الباري عز وجل .
 - أعرف . وستعرف أنت بالتأكيد .
 - أنا العبد الذليل ؟ لا أظن .
 - ستعرف ، لا تتباله .. الموضوع : تحويل تفكير . هذا هو الأساس .
 - والله العظيم ...
 - لا تحلف .. كنت موظفاً مستقيماً كالميل .
 - وما أزال ، يا استاذ عبد الرحيم .
 - لا أظن .. أعوج .
 - لست أعوج ولا أعرج ولا أهوج ولا مشطور الشفتين .
 - كفى فلسفة .. إذهب .. قطع الله لسانك .
- عاد السيد معروف إلى غرفته منهوكاً يشعر بوجع في مفاصله . وكأنه صعد مرتقى صعباً . ركبته تثنان عليه ، وجفناه يحكانه ، وكأننا من ملح دموع غير مرئية . ولما استقر وراء طابعته أحس بسن الكافرة تعود إلى دورانها اللثيم في معدته . طعنة نجلاء يحس بوجعها المؤلم في ظهره ، مع عرق لزج جعل الفانيلة تلتصق على عموده الفقري . ثم وخزت سن الكافرة عظم القص ، كحمرة محمأة . إستغفر

الله في سره ، واستعاذ به ، وبلائكته ورسله والصالحين من أوليائه .
تقتت حيوية الصباح ، واستحالت إلى ضيق في الصدر ، وثقل في
الرجلين ، وامتعض مقرر من الناس والنفس والجسد . ومن جديد
راح يتمثل ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدره ، ويستولي على
لسانه ، ويقول أشياء فجائية فالتة لم تخطر على باله من قبل . ما إن
تصدر كلمة ملعونة حتى تتقافز في أثرها كلمات لا نهائية ، وكأنه
يدخل في حوار يمكن أن يستغرق العمر بأكمله . لم يحس السيد
معروف بالنضوب ، لكنه أحس بالحسرة على شيء لم يفه به لسانه
حتى الآن . كلمات كثيرة ، ولكن شيئاً مهماً بقي في قلبه كان يجب
أن يقال ، ولكنه لم يقله حتى الآن ، شيئاً لا يعرف ما هو بالضبط ،
ولكنه موجود يثقل على القلب ، ويحربش في الصدر كالقأرة
الحبيسة ، هو سر هذا الضيق الذي يحس به الآن ، الامتعاض
القريب من التقية ، الثقل الكريه الشبيه بثقل الاصفاد ، والمشي في
النوم ، كالعجز ، كالعناد . قاتل الله هذا العناد . أو ، لا ، دع الله
يقاتل في جبهات أخرى أهم . أوه ، كفى . رأى قوائم الحسابات
مكومة على منضدته . إغتاظ وعربد شيطان العناد في صدره . كأنما
رأى النفاضة التي القاها صباحاً من النافذة تعود إليه ، وتهزأ به .
رفع قوائم الحسابات من المنضدة ، وخرج من وراء آلتة الطابعة ،
واتجه نحو منضدة السيد هاشم .

- تفضل .

- ما هذا ؟

- لن أخطئها . قسماً بالله لن أخطئها . سأرميها من الشباك ، ولا
أخطئها .

- ما هذه الجسارة ؟

- سمّها ما شئت ، يا سيد هاشم ، سمها ما شئت . فأنت تستطيع أن تسمي أي شيء بأي شيء آخر .

قال السيد كاظم :

- هاتها .. أنا أطبعها .

وتبرع بذلك السيدان عبد اللطيف ومطر .

- هاتها ، هاتها .. إنتهيت من شغلي .

- خذوها .. خذوا اللوغاريتمات ، وتمتعوا بها بقدر ما تشاؤون ، أما

أنا فقد تركت الفرع العلمي بسببها ، وبسبب المثلثات والجذر

التكعيبي .. أشياء جامدة لا تعرف الابتسام . وما كنت أتصور أنها

تطاردني في كهولتي .

جاء السيد كاظم ليأخذها . وابتسم له مشجعاً . قال السيد

معروف :

- هانت ، يا سيد كاظم ، هانت .

- لا ، سيد معروف ، لا تشاءم .

- هانت وهزلت ، والله . من محرر له طموحات إلى كاتب طابعة

يستنسخ المربعات والمستطيلات . فكيف لا تهون ؟

عاد السيد معروف إلى منضدته . وأسند مرفقه عليها ، لوى

رأسه ، ووضع على راحة يده المضمومة ، ونظر إلى طابعته السوداء

القديمة المستهلكة باشمئزاز ، وكأنما ينظر إلى مزق معدته ، إلى حطام

حياته . كتلة شوهاء لا تتحرك إلا بفعل قوة خارجية ، وتهضم ما

يلقمه الآخرون ، محدثة بذلك الكثير من الضجة والنواح

والحشجة ، متعطلة من حين لآخر ، نزقة متعثرة ، متداخلة

الحروف ، معوجة الخطوط ، لا يعرف أحد متى تدق دقتها الأخيرة ،

وتهمد إلى الأبد ، غاصة بلقمتها الأخيرة . إن آخر حصن بدا له لا

يقوى على ستر نفسه ، فكيف يستطيع أن يستمر مخلوقاً آخر؟

فتح الباب بدفعة قوية ، وظهر فراش المدير العام .

- سيد معروف ، السيد المدير .

قرعت عظام السيد معروف حين نهض فجأة . إمتحان ثانٍ؟ توجه نحو الباب ، ثم توقف هناك ، وأرسل بصره في الغرفة ، فوقع على النافذة التي قذف منها بالنفاضة في الصباح . كانت عيون زملائه تحتها تنظر إليه بريية ، وكأننا مقدم على عمل منكر ضدهم . في المشى عدل ربطة عنقه ، ومسح على فوديه الشائبين ، وتوكل على الله وكأنه خارج إلى سفر بعيد ، وتقدم من باب المدير . همس الفراش قبل أن يفتح له الباب « لا يستقر السيد المدير حتى يعود بك إلى اللجنة » .

- نعم ، يا سيدي ، هل أرسلت في طلبي؟

أمسك المدير بقلم ، واتكأ على ظهر الكرسي ، وقال وهو يضرب به أصابعه .

- نعم . هل راجعت نفسك؟

- راجعتها كثيراً . دائماً أنا معها .

- وعلى ماذا استقر رأيك؟

- بخصوص أي شيء؟

- بخصوص المقالة .

المقالة مرة أخرى؟ ستجني عليّ المقالة هذه . ستأخذني إلى قبري .

وأحس بسورة غضب تعتمل في مكان ما في نفسه .

- أية مقالة ، يا سيدي؟

- المقالة نفسها . أما تزال تنكرها؟

أتبرأ منها ، أمقتها . العن ذلك اليوم الذي سطرتُ حرفاً فيها .

- نعم ، يا سيدي .
- تنكر نسبتها إليك؟
- كل الانكار ، يا سيدي .
- حلق المدير في وجهه ، وهزّ رأسه :
- عجيب أمرك ، يا سيد معروف . ويدهشني هذا الانكار ويجيرني .
- مقاتلك وتنكرها؟
- أنكرها ، يا سيدي ، أنكرها .. فأنا لم أكتبها ، يا سيدي . لم أقم بأي عمل ملموس في حياتي ..
- وهي مذيلة بتاريخ .. حين كنت تعمل في لجنة الشر .
- لا تاريخ يا سيدي .
- كيف لا تاريخ؟
- هكذا ، ببساطة ، لا أذكر تاريخاً .
- هل أنت تنكر وجود التاريخ عليها ، أم التاريخ بشكل عام؟
- الاثنين ، يا سيدي .
- وضع المدير القلم على الاوراق مستفزاً ، وقال :
- أنت مجرم إذاً ، غبي ، وغير وطني .
- يمكن أن تكون لي بعض الصفات السيئة ، يا سيدي ، ولكن ليس منها هذه الصفات .
- من صفاتك الحماقة والمكابرة .
- ربما الأولى .. ولكن الثانية لا . يقول الزمخشري : كابر فلان فلانا
- طاوله بالكبر .. فعلى أي شيء أكابر أنا؟ أنا أصغر مخلوق فيكم .
- أسكت ، سفيه .
- تؤمر ، يا سيدي .
- تنكر التاريخ؟

- ساقه المدير إلى زاوية ، وحاصره . رأى شيطان العناد يطل عليه من وراء نسيج عنكبوت معلق فوق رأسه . قال بعناد الشيطان :
- أنكره ، يا سيدي ، أنكره كلياً - تنكر تاريخك؟ فكر السيد معروف قليلاً ، ثم قال :
- إذا كان لا بد من الاعتقاد بوجود تاريخ لي ، تبنيته قول أحد الأطباء : تاريخك في معدتك .
- هاه ! بلعته؟
- لا ، يا سيدي ، بل هو الذي تكوّن هناك دون إرادتي عن طريق الأطعمة التي تناولتها ، والأزمات التي مررت بها .. أو هذا ما فهمته من كلام الطبيب .
- هاه ! يا للصلافة .
- هذه صفة أخرى غريبة عليّ ، يا سيدي .
- قلت لك لا تكرر كلمة سيدي .
- تؤمر ، سيدي .. أقصد عفواً يا ... أقصد ... ما هو التاريخ يا ..؟ أرجو المَعذرة : ما هو التاريخ؟
- تريد أن تمتحني أم تعلمني؟
- لا هذا ولا ذاك ، يا ... أريد الاستفادة يا .. هل تسمح لي بأن أناديك : أبا زياد؟
- لا ، لا أريد .
- تؤمر ، يا سيدي .. أقصد عفواً .. نعود إلى التاريخ .. هل تفضلت ونورتي بتعريف قصير عن التاريخ؟ إذا سمحت ، بالطبع .
- أوه .. التاريخ ، يا بهلول . هو تاريخ الناس . تاريخ البشر .
- لا أعتقد ، يا سيدي . أرجو أن تسمح لي بهذا النداء اللازم . من قبل كان يا مولاي ، والآن يا سيدي . ساد سيادة . إنه يتتاب الناس

من أمثالي بشكل لا إرادي ، كالفواق ، كلما خاطبوا الأكبر منهم رتبة .

- فواق؟

- أو شقيق ، أو دعاء ، أو صلاة ، على العموم ، عكازة لا يمكن الدخول إلى حضرتكم ومخاطبتكم بدونها . هكذا اقتضى التاريخ الذي تعتبره حضرتكم تاريخ البشر ، وأعتبره أنا تاريخ المميزين والمديرين العاملين وملاك البيوت والمقاولين وأصحاب الاسواق العصرية ، ومن شاكلهم ، وأكل أكلهم .

- أسكت ، سفيه .

- تؤمر ، سيدي .

- هذا تلقين من دعاة السوء والمشاغبين ومقسمي الناس إلى طبقات . هذا تجديف بالقيم . من أين جاءك هذا التصور الخاطيء للتاريخ ؟

- لأنني لا أجد فيه شيئاً من تاريخي ، من حياتي . ألسنت من البشر ، يا سيدي؟

- بدأت أشك في أنك من البشر .

- الشك قائم منذ الأبد ، يا سيدي . وهو مثل خلق الكون ليس له بداية ، ولا أدري هل ستكون له نهاية . العلم عند ربي . ولكن من نعم الخالق عزّ وجل أن ما من إنسان أنكر ، بحض إرادته ، أنه من البشر . وما دامت نعمة الباري هذا قائمة ، فإن هناك ملايين عديدة تشعر أنها خارج تاريخ البشر ، أو ربما بلا تاريخ مكتوب ، أو على الأقل ، لا تحس بالتاريخ ، ولا تعترف به . ومن أجل ذلك تقول إنها حقول نفط نابضة حتى لا يستغلها سادة التاريخ .

- أسكت ، حيوان ، حشرة .

- وهكذا نفيتني بهذين النعتين من تاريخكم، يا سيدي.
- سأنفيك من الدنيا كلها، أيها الجربوع. أخرج، أخرج.
- خرج السيد معروف خفيفاً، كالروح الخارجة من الجسد. ولكنها روح ذات أوزار، خرجت من معركة منكر ونكير. تعلقت به أربعة أزواج من العيون حين دخل غرفته، متسائلة متوقعة شيئاً كان يجب أن يقع، وقد وقع بالفعل. وإن كان بالشكل الذي لم يتصوره أحد من زملائه. حطَّ السيد معروف بجسمه على كرسيه، وتنفس الصعداء، وكأنما أعاد الأمانة إلى خالقها، الذي أوصى باداء الأمانة كاملة غير منقوصة، وفطن إلى أن ركبتيه لا ترتجفان، وجفنيه لا يحكانه، كما حدث في المرات الماضية، حين كان يحس وكأنه فرغ من نوبة نحيب جافة بدموع غير مرئية. وفرَّ الفأر الذي كان يخربش في صدره إلى منطقة نائية من وعيه، حيث رقد مثل حصوة في المرارة، مثل ندبة من معركة سُجِّلَتْ عليه، وإذا خرج من الدنيا، نفي منها، خرج معه محمولاً على أعواد أو تابوت. وذلك هو الذي كان يشيع في نفسه شيئاً من المرارة والعجالة وعدم الارتياح، وكأنما أصبح ينطوي على سرٍّ غير مأمون من قبل الآخرين. وكانت الدققة المستمرة العجماء، وسكوت الألسنة التي تعودت على التعليق تشعراؤه ببداية حالة من الحصار والعزل جعلته عاجزاً عن الاتيان بمجرعة، أو النطق بشيء. ولم يعد يعرف ماذا يصنع بيديه المرتجيتين، وكيانه المتوتر المشدود كله كالقوس. فنهض، وقال دون أن يلتفت إلى أحد:
- صداع فظيع، يا جماعة الخير.. أسمحون لي بالذهاب إلى البيت قبل الدوام بقليل؟
- وفي الطريق اعترته نفس الرجفة اللاإرادية. نفس القشعريرة،

ولكنه وجد في نفسه القدرة على كبحها ، ولم يتدثر في البيت . حشر يديه بين ساقيه المطبقتين في جلسته على سريره ، ونظر بسهوم إلى مرهونة ، وهي تدخل عليه بصينية الغداء . كانت صامتة تبدو متعبة مأزومة مثله ، وكأنا شهدت مغامرته اليوم في الدائرة . نظر إلى ما في الصينية ، وشعر بتقزز يثقل على معدته ، فقد رأى مرق « القرنابيط » مبرقعاً بطبقة كثيفة من الدهن البرتقالي اللون ، وهذا وحده كفيل بأن يثير شجن معدته ، ويبعثها على الاحتجاج . وبدا له صحن الرز أبيض بارداً تصور أنه إذا وضع لقمة منه في فمه ، لن يجد في فمه اللعاب ليمضغه . أزاح صينية الغداء ، وذهب إلى أمه . وشعر بالاطمئنان الأعجم ، وهو يدخل إلى حجرتها ، وكأنا يعود إلى طفولته ، حيث لا هموم ، ولا تفكير ، ولا تاريخ ، ولا ماضٍ ، ولا تهديد بالخروج من الدنيا . رآها جالسة جلستها المعتادة منطوية الجذع على السرير ، ملفوفة الرأس بفوطتها البيضاء . شمت رائحته قبل أن تراه ، أو أحست بالحركة ، ورفيف الهواء حين دخل الغرفة . رفعت رأسها إليه .

- أهذا أنت ، يا معروف ؟

- نعم ، أنا . كيف حالك ، يا أم معروف ؟

- ما دام معروف طيباً ، فأنا طيبة .

أهدى له حنان الأمومة عزة نفس إضافية .

- صامد ، معروف ، صامد .

- هذا المرجو من الله .

- وكيف عندك ضغط الدم ؟

صمتت ، وعرف أن وراء صمتها ضغط دم عالياً . قالت

متأوهة ، تزيج قناع الثقة الذي تبرعت به قبل لحظة .

- ضغط الدم يضغط على عيني ويحرمني حتى من رؤية أشباحكم . لم أرك حين دخلت الحجرة ، ولكنني أحسست بالحركة . إن لدخولك حركة خاصة تختلف عن حركة أختيك .. حركة رجل في البيت .
- سيكون هذا الرجل إلى جانبك دائماً .
- يا ليت ...

وتهدج صوته ، وكادت تبكي .
- العاطفة ، يا أمي ، العاطفة القوية تؤثر على عينيك وتزيد من ضغط الدم .

- وهل أستطيع أن أنظف قلبي منها؟ ليس ذلك بيدي .
- إطمئني بالآ ، فأنت امرأة قوية .
- نعم ، قوية . أشهد بالله على أي قوية ، ولولا عيناى ، لرأيتني الآن أطارده ، وأخذ نصيبي من الدنيا .

كان يعرف ذلك دون حاجة إلى إثبات . حياتها شاهد على ذلك .
ألم يربيه وترى اختيه؟ صحيح أن خاله ساعدها في رفع حملها منذ وفاة أبيه ولكنها في حياتها كانت امرأة قوية حقاً ، وصلبة ..
- أخذت نصيبك من تعب الدنيا وزيادة .

- وما زلت أستطيع التحمل وأحب أن أتحمل . كذب . ليس الإنسان كالحیوان يفتس بسرعة . أنه كالقطة ذو سبع أرواح ..
أوه ، يا معروف . أنت تعرف . ولكن عيني نكتت بي .
ومست عينيها بطرف فوطتها . الدموع تفرقت فيهما ،
فتلزجتا .

- أعرف ، يا أمي . وأنا الذي نصحتك بإجراء العملية أكثر من خالي . كنت ألع عليك دائماً .

- خفت! هذا نصيبي ، خفت ... خفت أن أفقد البصيص الذي

كنت أرى به الدنيا ، أراكم والناس ، وطريقي إلى بيت الراحة . ولم أدر أن هذا البصيص يحفت شيئاً فشيئاً . وأنا أخاف من العمى الكلي ، أخاف أن تحجب عني أشباحكم ، ولا أرى من الدنيا غير الظلام . عندئذ سيكون ظلام القبر أهون .. لا .. لا ، لا أريد .. ظلام القبر بارد ، يا معروف ، وموحش وخائق .. لا أتحمله ، لا أستطيع ..

وظفقت تبكي .

- عمرك طويل ، يا أمي .

- وهل تتصور أن نفسي هي التي تهمني ؟ لا .. أنا لا أحب القبر لأنني لا أرى الذين أحبهم ، ولا أعرف ماذا يجري لهم خارج القبر . أنا ، على الأقل ، أراكم تتحركون أمامي ، أرى أشباحكم ، وأشم رائحتكم ، وأستريح ، يهون عليّ العمى .

- أريد أن أقول لك شيئاً .

- تفضلي .

- أخاف أن تتأثر .

- قولي . لم أعد أتأثر في شيء .

- أنت تذكر موقف ، ذلك الذي خطب أختك محبوبة قبل عشر سنين .. ربما .

- أذكره بالطبع ! هل جاء يبحث عني ؟

هلمت الأم . لاح ذلك من حركة كفها اللائبة المبسوطة على الفراش . وبعد فترة من الصمت كانت تحس بثقل انتظاره خلف جفניה نصف المطبقين .

- وجدوه ..

- وهل كان مفقوداً ليجدوه ؟

- وجدوه .. مقتولاً .
- مقتولاً؟ .. أين؟
- على الشاطيء؟ .. قرب بيته؟
- ساد صمت مشؤوم سرح كل واحد منهما في خياله الخاص ، إلى توجساته ومخاوفه . كان السيد معروف يتمثل عملية القتل ، وكأنها وقعت أمام عينيه اليوم ، كان يتخيل الجثة ملقاة على تراب الشاطيء منبوذة معفرة مدماة . والصمت لم يعد يحتمل . كان لا بد من سؤال .
- متى كان ذلك؟
- قبل يومين .
- يعني في نفس الليلة؟
- أية ليلة؟
- لا شيء ..
- والصمت عاد يباعد بينهما ، مثل لجة عاتية من نهر مضطرب . والخيال إذا أصيب بالحمى شلّ اللسان والمنطق ، وأصاب العقل بتوهج وهذيان .
- قالت الأم بصوتها الكئيب :
- كأن قلبي أعلمني .. إذا تزوجته أختك .
- أردف يكمل الجملة الشرطية :
- تترمل - ثم صاح بضيق لم تعرف الأم من أي مصدر نبع - إذا لم تترمل هي تترمل أخرى .. لا فرق! .. عنده أربعة أولاد ..
- من أين عرفت؟
- عرفت .. أنت تقولين لا يخفى شيء في الدنيا .

ولولت الأم لشيء خفي في نفسها . ودَّ السيد معروف لو يعرف على وجه التحديد . ولكنه خمن أنه خوف غامض من مصيبة تحل في فناء البيت أكثر منه ندماً على فعل صدر منها ، أو لربما آسف على خسارة رجل ارتبط بذكرى دفينه في قلبها ، أو ربما تتأسف الآن لماضٍ كانت فيه مفتحة العينين ، والآن ، وهي في ليل عماها ، ربما كان يبدو مثل حياة أخرى في أرض أخرى ، وبين أناس آخرين لهم وجوه ، وغمزات عيون ، واقترار شفاه ، واختلاجة أيدٍ . وحين نهض من سريرها صاحت وراءه :

- معروف ، هل تأثرت مني ؟

- لا ...

- أعرف أنك تأثرت .. أعرف ، لا حاجة إلى الإنكار . ومحبة تأثرت أيضاً .. أغلقت بابها منذ أن سمعت الخبر في الصباح ، ولم تخرج لتناول غدائها .

وتحولت ولولتها إلى انتحاب صارخ مستصرخ تحاول به أن تحترق جدران الظلام الذي يفصلها عن رؤية التأثير في وجوه الآخرين ، تتغلب به عن انقطاعها ووحدتها ووحشة نفسها المنبوذة والمخاوف والهواجس التي تتكون غزيرة في صدرها ، ودون إرادتها ، فتسبب بها اختناقات ، وتمتص الهواء من صدرها ، فتشقق وتشقق الهواء من فيها ، وتهتز بكل كيائها هزات عصبية متشنجة حتى خشى السيد معروف أن تستولي عليها الرعدة ، وذلك يحدث كلما انفجر ذلك البركان الخامد في صدرها ، ورفع حمه إلى يافوخها ، وأوشك أن يخنقها .

- إسكتي ، إهدئي لا ينفع البكاء الآن . ما جرى جرى . أو كما يقول ذلك العربي الحكيم : ما مات فات ، وكل ما هو آت آت .

وأكمل السيد معروف الخطبة في سره : آيات محكمات ، وأباء وأُمهات وذاهب وآت . وذهب السيد معروف إلى غرفته دون أن يجد الرغبة حتى في الاستمرار في تهدئة أُمه . قابلته مرهونة بوجهها المسحوب المتقع ورقبتها الطويلة مثل فراغ قبيح بين رأسها وكتفها ، الطول الفارغ مثل طول رقبته . أم لعل طول الرقبة ليس فضيلة ، ولا علاقة له بالتأني والصبر ، كما تفضل الإمام علي ، أو لعل الصبر ليس بمفتاح الفرج ، كما تفاءل المثل العربي ، أو لعل الفرج ليس له مفتاح ، كما يظن السيد معروف أحياناً . صبر وصابر ، وانتقل من المهدي إلى الكهولة مروراً بسن التفتح وسن الزواج ، وسيمرُّ بسن الكهولة الرذيلة . ثم مع السلامة ، تفضل ، تكفن بالصبر ، يا سيد صابر ، ونم نومتك الأبدية إلى يوم الحشر ، ويوم تبعث حياً . وذوو الميزانيات الضعيفة هل سيحشرون ؟ أما كفاهم حشراً في البيوت الضيقة والباصات المكتظة ، والدوائر الخائقة بفعاليتها ومميزها ومديرها العامين ، بالجنس اللطيف أو بغير اللطيف ، فإن جنسهن لن يطف من الأمر شيئاً . على أيٍّ أحذب أصبح السيد معروف ؟ على أيٍّ أعرج أو أحول أو أعور أو مبتور الأذنين . أين الرومي من الدرجة الأولى . متشائم . يخاف من الدنيا والناس . هذا هو الاتهام القديم الذي كان المرحوم موفق - تصوروا المرحوم الآن !- كان يوجهه له . إفتح عينيك ، يا سيد معروف ، إفتح عينيك . لماذا تعلقها على الغروب الهارب ، ولا تلقي نظرة على الأرض التي تسير عليها ، على مواقع قدميك . إسمع ، سيد موفق : لكم دينكم ولي ديني .. من يك ذا بت فهذا بتي ، مقيط ، مصيف ، مشتي .. من يدري ! ربما أبحث عن المن والسلوى تسقط من السماء . مثلما فعل موسى في زمانه . ولست أكثر خيالاً من موسى كلم الله .

وكان السيد معروف ، بالفعل ، يبحث عن شيء يسقط عليه .
وذات مرة ، بعد سهرة المقهى ، سار في أزقة موحشة ، شبه مظلمة . في
مثل هذا الجو كان يحلو له التوقيع . وفجأة أحس بشيء يسقط في
الظلام .. شيء أبيض ثقيل كالدرة . ركض إليه ورفع . كان كيساً
من الورق مكوراً ، ضمه تحت أبطه كاللقطة . وبعد قليل أحس
بالليونة تحت أبطه مع خرخشة . وفي الضوء التالي فتح الكيس ..
ويا للخيبة ! كانت فيه قشور برتقال وبيض . بعد أيام لقيه موفق في
المقهى . هل تلقيت هبة السماء ؟ لا ، لم أتلقها بعد .. قال بجفاء . وقد
ظن أنه كان يراقبه . وعلى العموم كان يغيظه أن يلح موفق دائماً
إلى ما في قلبه أو فكره ، يعرف مطوى أسراره . كأن موفق كان
ينظر إليه من خلال نور ، كما تنظر صورة أشعة . وكان يرد على
« لماذا ؟ » المتكررة على لسان السيد معروف رداً جسوراً يقلب فيه
مقاييس الساعة . وفيما بعد تملك السيد معروف العجب من تفكير
العقل البشري ، وأراد أن يعرف كيف يعمل هذا العقل ، مثل
الساعة ، أو محرك السيارة ، أو أية آلة أخرى ، أو بقوانين مختلفة
تماماً ؟ ولماذا يسير عند هذا الشخص بهذا الاتجاه ، وعند شخص آخر
باتجاه مختلف ، ويدور عند شخص ثالث حول نفسه كالمصراع ؟ وعلى
العموم كان يغيظه ذلك الذي يقسمُ حظوظ الناس . لماذا كان لموفق
أب وأم ، وأخ وأخت ، بينما وجد نفسه مع أم وأختين ؟ مصادفة ؟
وما هي المصادفة ؟ ولماذا يصادف عكس ما يريد ؟ لماذا ينعم شخص
بمصادفة حسنة ، ويحترق هو بحجم مصادفة سيئة ؟ حظوظ ؟ مكتوبة
باللوح المحفوظ ؟ ولماذا هذا التحيز وعدم الانصاف في الحظوظ ؟
التوزيع غير العادل حتى بنسب الجسم . طبعاً ، انه يحمده الله على أنه
ليس أعور ولا أعرج ولا أفلج ولا مشقوق الشفتين . ولكن لماذا لم يتم

نعمته ، ويجعل رقبته معتدلة مثل رقاب الناس ، وليس بهذا الطول القبيح غير النافع؟ ولماذا لا يحق لأحد أن يعترض ويحتج على ما دون له؟ تفضل ، إعترض ، تمرد . ولكن ما فائدة التمرد؟ هذا السيد المتني تمرد ، وهجا ووقى وأبى وعتا على من عتا ، ورأى في ملوك الأرض أرانب مفتحة عيونهم نيام . ولكنه اضطر في آخر حياته إلى أن يحارب عصابة ، وقتل بيد أحد أقارب من هجاه ذات مرة . فكيف بالفقير إلى رحمة ربه السيد معروف عامر الدواليبي المشتق لقبه من دولاب الهوا؟ لا ، يا سيد موفق ، لا أريد . فأنا لست من الذين شقت بطونهم ، ونظفت بطست من الذهب ، وملئت إيماناً وحكمة ، بل من السواد الأعظم ممن لم تشق بطونهم إلا لأجراء عملية جراحية مستعصية .. مع أنني بحاجة شديدة لشق بطني ، وتنظيف معدتي من القروح الملتهية . ولكن أين ذلك الجراح النطاسي؟ يفعل ذلك مجاناً ولوجه الله ، يدخل في النار التي في معدتي ، ويخرج الجمرات التي في جوفها . مثلما فعلت أنت ، يا موفق ، في حادثة الحريق في بيت عمار ، وأخرجت أولاده ، وحصلت على مدالية فوق حاجبك ، أثر من لفح النار . وقتها أولت تأويلات شتى ، ككل شيء في الوجود . ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل؟ وأنا أيضاً لم أكن أدري بما في من جهل . وانجرفت مع تأويلات أُمي ، في قضية الأخت الوديدة . وخفت خوفها ، وتفجعت تفجعها . سياسي؟ لا ، لا ، خطر . بلا مستقبل . السياسية آفة مهلكة ، ورطة وبيلة . ولهذا السبب رفضت ، خفت على أختك من الترمل على الأقل ، وكأنها أول أرملة في الاسلام . ولم يكن يهكم أن تترمل أخريات ، بأطفال أربعة أو خمسة ، أسكت ، مجرم ، حقير ، حشرة ، جربوع . كلنا ، يا استاذ مدير عام ، من قوم متهمين بأكل اليرابيع . واليربوع ، كما يقول لسان

العرب ، دويبة تشبه الفأر ، إلا أن السيد الجاحظ يَعِدُّه من حشرات الأرض . يده أقصر من رجله . بعضهم يصفه بالحيلة ، والبعض الآخر بالمسكنة . ولكن الاصطياد والقتل حاصلان ، ولا أحد من أئمة اللغة العربية ينكره . بل أن راوية العرب المغفور له الجاحظ يروي عنه أشعاراً لطيفة :

يا رب يربوع قصير الظهر	وشاخص العجب ذليل الصدر
في العُسر إن كان وبعد العسر	اطيبُ عندي من جنى التمرِ
وشحمة الأرض طعام المثري	وكلُّ جبار بعيد الذكر
أكله غير الحراي الخضر	أو جعل صلى صلاة العصر .

بقي أن أذكر ، انصافاً للتاريخ ، أن الاعراب ، كما يقول الجاحظ ، لم تكن تتصيده في أول الليل ، لأنها تعتبره من مطايا الجن ، ولكنه في عصرنا الحاضر الذي لا يؤمن بنظرية الجن والانس ، يصاد في كل الاوقات ، آناء الليل ، وأطراف النهار . تفضل ، صده ، قدر ما تشاء ، ومتى ما تشاء ، وأينما تشاء . وأنا ، الجربوع ، لا أخشى أن أؤكل ، أو هذا ما أقوله بيني وبين نفسي ، ولو كنت آسف على ذلك ، بصريح العبارة . وأخشى ما أخشاه ، ولا سيما في الوقت الحاضر ، أن أحيأ غير حيد ، وأموت غير فقيد . . يعني كالجربوع . وأنا في ذلك أشترك مع السيد المتني ، طيب الله ثراه ، الذي كان مقامه بأرض نخله ، كمقام المسيح بين اليهود ، فأعتبر متنبياً . مع أنه ، كالسيد موفق رحمه الله ، كان عوذ الجاني وغوث الطريد . ومن يدري ! فقد يكون من أمة تداركها الله غريباً . كصالح في ثمود . إلا أن القتل حاصل على أية حال ، في النعمانية أو على شاطئ النهر ، في ليلة قمرية أو ظلماء ، وحتى في وضح النهار ، أو رائحة النهار ،

ولا تقل رابعة النهار . ومن يدري ! عندما كان يتحدث عن معنى إبليس ، كان أحد الأبالسة يشحذ له سكيناً ، أو مسدساً ، ويترصده . والمنايا رصدٌ للفتى حيث سلك ! ولكنك ، يا سيد معروف ، هيأت الفرصة للفتك به . عندما كنت تقول لا تفكير ، وأنا إنسان يعيش بلا تفكير ، كان هناك من يفكر في القتل ، وينوي عليه . والنية ، يا سيد معروف ، موجودة ، ولا يوجد إنسان بلا نية . ولكن الاختلاف في النيات . وهناك نيات غاية في الشر ، تجعل الانسان يؤمن بقول الحجاج . آمنا والله ، إني لأحتمل الشر بحمله ، أو أحذوه بنعله . . أوه ، كم لك من أفكار جهنمية ، يا سيد معروف ، وتقول ليس عندي أفكار . . هذه الامثلة التي تستشهد بها ، أليست أفكاراً ، يا سيد تراث أفندي ؟ شاة الأعمش التي كنت تحلم بها ، وتود أن تكون لك ، ألا تتطلب فقيهاً أعمش يسرّها فقهه ؟ تنكر ؟ تنكر التاريخ ؟ نعم ، أنكره . . يعني عندك أفكار ضده ؟ تكلم ، أنطق . والسيد الجاحظ وعظ بالكلام وقال : صار الكلام أفضل من الصمت ، لأن نفع الصمت لا يكاد يعود الصامت ، ونفع الكلام يعم القائل والسامع ، والحاضر والغائب ، والراهن والغابر . ولهذا صار من المتكلمين . تكلم ، يا سيد معروف ، تكلم . هل أبلسك الله من الخير ؟ تساوت لديك الأمور ؟ وصارت الأيام كلها كيوم واحد ؟ مع أنك تعرف قول السلف الصالح : « مَنْ استوى يوماه فهو مغبون ، وَمَنْ كان يومه خيراً من غده ، فهو مفتون ، وَمَنْ كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المحظوظ » لا ، لست سعيداً ، يا سيد معروف ، لست سعيداً ولا محظوظاً . أنت لا تختلف كثيراً عن ذلك الذي وصفه أحد العلماء بأنه أسوأ الناس حالاً ، لأنه قال عند موته : دخلتها جاهلاً ، وأقمت بها حائراً ، وأخرجت منها مرغماً » وهو يقصد الدنيا ، الحياة . فهل

هان عليك حتى أضعف الايمان ، يا سيد تراث أفندي؟ تنسب أفكارك إلى شيطان يستولي على لسانك؟ تتبرأ منها ساعة تريد . شجاعة فارغة لا نفع فيها مثل طول رقبتك . ولو كنت شجاعاً حقاً ، لذهبت الآن إلى أختك محبوبة ، واعتذرت لها عن الاذى الذي ألحقته بها من جراء رفضك لزوج كرم .

جأجأ صوت مرهونة من وراء الباب :

- معروف ، ينادونك؟

- مَنْ؟ صاحب البيت؟

- لا .

- الشرطة؟

- لا .

- من يطرق الباب عليّ إذن؟

- شخص لا أعرفه .

خرج السيد معروف إلى الباب مذهولاً ، وكأنه ذهب ليقابل شخصاً بُعث حياً .

- ها ، سيد كاظم؟ خير إن شاء الله؟

- قلت لنفسي لا أنام إلا أن أقابله .

- خير؟ لا أستطيع أن أدعوك إلى البيت ، مع الأسف الشديد .

- لا حاجة إلى الازعاج . دعنا نتمشى .

وفي شحوب المساء كان صوت السيد كاظم يبدو صادراً من دهليز .

- أيُّ يوم حافل كان لك اليوم ، يا سيد معروف؟

- حافل ، يا سيد كاظم ، حافل .

- كنت فيه كالمكوك ، من المميز إلى المدير العام .

- نعم ، مكوك بين يدين ماهرتين . تدفع اليمين لتستقبل الشمال .
- أرجو ألا يكون قد أفلت منك ما يعكر زمالتنا ، إذا لم تكن
صداقتنا .

- وهل تتصور أن يفلت مني مثل هذا الشيء ؟
- يجوز .. في ساعة الوقوف بين يدي السلطان .
- لا ، يا سيد كاظم ، لا تقلق من هذه الناحية .
- عندي أولاد ، يا سيد معروف ، وليس لهم معيل غيري .
- لست معدوم الضمير ، يا سيد كاظم . ثم هل لدي شيء لأقول ؟
- بخصوص دعوتك إلى الانضمام إلى فرقة الإنشاد . سمعت السر
يفلت منك .

- ماذا قلت بالضبط ؟ آه ، تذكرت ! هل أنت من الظرفاء يا سيد
كاظم ؟

- في هذا الموقف بالذات ، أرجو ألا أكون .
- كن على ثقة .
- أنا لا أثق بالمثل القائل .. « دار السيد مأمونة » .
- ولا أنا .

تأفف السيد كاظم ، وصمت طويلاً كأنه لا يعرف كيف يواصل
الحديث ، أو كأن مخاوف أخرى شديدة تنازع نفسه . ثم قال بتهيب :
- هل لي أن أعرف ماذا تحدثت مع المدير العام مثلاً ؟
- يمكنك .

وصمت السيد معروف طويلاً ، على العادة ، في المواقف التي تقال
فيها كلمات حاسمة ، وأردف بعد ذلك :
- تحدثنا عن التاريخ .
- التاريخ ؟

- نعم ، عن التاريخ ، هل لك تاريخ يا سيد كاظم ؟
- تاريخي هو تاريخ استلام الراتب كل شهر .
- أما أنا فانكرت التاريخ كله .
- أنكرت التاريخ ؟
- أنكرت أن يكون التاريخ هو تاريخ البشر ، كما قال سيادة المدير ، فلو كان التاريخ تاريخ البشر لكان تاريخي أيضاً . ألسنت من البشر ؟
- هوى هوى هوى . إسمح لي ، يا سيد معروف ، أنت تورط نفسك في أشياء أنت في غنى عنها .
- ربما . ولكن هل أنت في غنى عن أن تعتبر نفسك من البشر ؟ تلك نعمة من نعم الباري ، يا سيد كاظم ، أم أنك تؤمن بالقائل : « لعل الله فضلكم علينا بشيء ، أن أمكم شرم » ؟
- لا أعرف . ولكنك ستندم ، يا سيد معروف ، ستندم .
- لا أظن ، يا سيد كاظم . ولو قُدِّر لي أن أقابل المدير العام مرة واحدة ، وجرى الحديث على نفس الموضوع لقلت نفس الكلام ، بل ولصرخت في وجهه : « لو كان التاريخ هو تاريخ البشر حقاً لكان تاريخي « واضفت » وتاريخ نسيبي الذي قتل قبل يومين » .

حزيران ، ١٩٨٠

الشيخ يصر

استيقظ لهم منذ الفجر ، إنسل من فراشه خلسة تاركاً نسمة
أواخر الليل خلفه ، وهبط السلم متكئاً على الحائط ، ولما هبط
الدرجة الأخيرة رفع عينيه إلى فوق ليتأكد من أن زوجته لم
تستيقظ في إثره ، وعبر الفناء المستطيل المتسربل بظلام الليل
البارح الممزوج بروائح قديمة ، وحل مقعداً إلى المجاز وجلس
ينتظرهم . بالأمس سهر بانتظارهم حتى منتصف الليل ... إلا أنهم
لم يأتوا . لم يسمع حركاتهم خلف الباب ، ولا وشوشة أصواتهم ، واليوم
صمم أن يغيبس لهم ، جلس مسنداً خده على راحة يده ، وأرهف
سمعه ، وراح ينتظرهم ، سيجلس حتى يسمع حفيف أقدامهم خلف
الباب . عند ذلك سيقفز ويمسك بتلابيبهم ، ويصرخ حتى يوقظ جميع
الجيران ، ويريه من هو . أنا أبوك !

كان هواء البيت وغراً مكتوماً ليس كمثل نسمة السطح في
الغبش . نازع النوم ، وانتشل جسمه من الفراش . والآن عاد إليه
النوم من جديد وهو خلف الباب . فتح جفنيه الثقيلين ، ورفع
حاجبيه في مغالبة . ووضع أذنه على خشب الباب ، وتأمل من خلال
نقاب من الظلمة الجزء الأسفل من الفناء . نوافذ السرداب الضيقة ،
وجزءاً من حب الماء ، والدرجات الثلاث الأخيرة من السلم ، والجزء
الأسفل من باب الحمام ، والمطبخ ، ومنخفض البالوعة . وكان
الصمت يغمر كل شيء . وكان الظلام يشف قليلاً أمام عينيه ، وفي
داخل صدره شيء يحكه ، رغبة عنيدة في أن يسعل . غالبها مخافة أن
يشعرهم بوجوده ، ثم هوّم ثانية وثقل جفناه ، فنفض السنّة الطارئة

بهزة من رأسه ، سعل بعدها رغماً عنه ، وحك صدره الأثيب يريد أن ينتزع هذا الذي يجربش فيه . وبعد دقائق سمع خوار بقرة فعرف أنها سكينه أم الحليب تقود بقرتها إلى رأس الزقاق حيث تبيع الحليب للناس . ولكنه لم يسمع أصواتهم . لم يسمع خرشة أيديهم على الباب . صمت كل شيء إلا قلبه ، مثل رقاص ساعة قديمة ، وجاءته الرغبة العنود . مرة أخرى ، الرغبة في أن يسعل . كز على أسنانه ولطم فخذه وبعد قليل هزت الصمت صافرة ناطور الليل .

وبعدها سمع هسيس مكنسة الكناس ، وتيقن أن الصبح قد طلع ، وأنهم لن يأتوا .

كان ظلام الحجاز مثل دخان يوشك أن يتوهج وحين نهض أمسك بركبته اليسرى المبتلاة بالروماتيزم ، ورأى النور قد شف في الأعالي . ولاح باهتاً اللون الأخضر الذي صبغت فيه شنائيل الحجر في الطابق الثاني . وقال في نفسه « ما راح يجون اليوم . عبالك عارفين آني كأعد انتظرهم . يعرفون آني منو . أنا أبوك يا حيدر » . وناقش نفسه « البارحة هيجي وكنت سمعت الخرخشة » وتوهم أنه يسمعها الآن . ولم يسمع إلا دقات قلبه يدمدم في صدره كطبل مثقوب . ثم سمع وقع أقدام ثقيلة تهبط الدرج . فعرف أنها زوجته . رأى قدميها الثقيلتين حين التفت ثم ثوبها الأسود ، وجسدها المكور . ولما اقتربت همست في عتاب .

- عبالك ما حسيت من كعدت؟

سعل وقال بصوت خفيض :

- لازم أشوف من هدوله .

- واش فايده؟ والمن تشتكي؟

- ما اشتكي لأحد .. عندي يدين . والامام المشور يسموه أبو

الحرك .. فطومة ، الإمام الميشور يسموه أبو الحرك؟

وانتابته نوبة سعال . ولما رفع بصره إلى زوجته رأى في عينيها نظرة حنان . عجوز ، مكسر؟ لا فطومة وخنق رغبة أخرى في السعال . وبخ من حنجرته . وهدأ ، وسمع محرك سيارة ، ثم آخر ، وأيقن أنهم لن يأتوا . رفع رأسه إلى السماء المستطيلة ، وكأن درابزين السطح داخل فيها ، فرآها زرقاء مضيئة وزاد ذلك في يقينه . صمت ما وراء الباب ، بينما دبت الحياة في الخارج بعد العطفة الصغيرة التي تقع فيها داره . كان يسمع دبيب أقدام المارة وسعالاً متقطعاً وحتى الـ «الله كريم» الذي يسمعه كل يوم منذ عشرين عاماً ، يفوه به بائع كبة متجول . وأضيء الفناء بضوء الصباح ، عادت الأشياء كما كانت ، ومل الانتظار . «يعني ما راح يجون؟ .. زين باجر الله كريم .. على كولة حساني أبو الكبة» . واقترب من الباب ، ونظر إليه في نقمة . قفاه ذو التجاويف الهندسية التي بدت مظلمة الآن ، وحادة الخطوط ، وصهل مزلاج وتخطى الشيخ العتبة إلى الخارج ونظر إلى الباب نظرة فارغة . وفي ضوء العطفة رأى شيئاً يملأ أعلى الباب . إقترب منه . بجلق فيه . كانت لطخة لاحت داكنة الحمرة مثل دم قان . غرز اصبعه فيها . كانت دبقة لما تزل .

صاح من مكانه .

- لج فطومة ، تعالي شوفي .

وجاءت تتكفأ في مشيتها ، عجوزاً ردت إلى عمرها الأول .

قالت وهي في الهجاز :

- شكو؟ حطوا بزونه لخ؟ .

- بعد انكس .. شوفي الكتابة الحمرة .

تخطت المعجوز العتبة في حذر ، ووقفت إلى جانبه ورأت
الكتابة . وقالت :

- إيش مكتوب بيها ؟

شم عرفني ؟ .. مثل العين العورة .

كانت اللطخة أمامه مثل ذيل معكوف . وقف وزوجته المعجوز
يتطلعان إليها ، وكأنهما يستطيعان بعد طول التملي أن يفكّا
رموزها . كانت غامضة ومغیضة ، سوداء حراء ، ما بين السحر
والإساءة ، وتضايق الشيخ من كون أمه وأبيه لم يعلماه القراءة
والكتابة ، تضايق أكثر من أي وقت مضى في حياته وبعد أن تعبت
عيناه من البهلقة العمياء حوله في العطفة الصغيرة مستغيثاً ، لا
شيء غير الحيطان . وخرج إلى الطريق ، وتلفت تلفتته الحائر
المستغيث كان الناس يسرون في هدوء وكأنهم لا يعرفون باللطخة ،
نظر شاب إلى سروال الشيخ الداخلي الطويل وابتم له في مودة، وهمّ
الشيخ بأن يسأله . رفع يده قليلاً ثم خفضها ملقياً إياها على فخذه .
ماتت كلمة الرجاء على شفثيه ، من بعدي ماذا تحمل هذه الكتابة
المحتقنة العوراء ؟ ثم انها مكتوبة بالصبغ الأحمر ، وهو وحده سبب
كافٍ لإثارة المتاعب . واتجه الشيخ نحو اليسار ، إلى دكان حسين
العطار ، هو وحده يستطيع أن يقرأ الكتابة المشؤومة . وإذا كان
فيها اذية لا يفضحه أمام الناس . ولكن الورقة الحديدية كانت
مسدلة ، وعاد الشيخ إلى العطفة ، ووقف أمام الباب . لاحت له
الكتابة حراء دامية .

- إشلون كتبوها ؟ سأل زوجته . وكانت جالسة على المقعد .

- كتبوها . والإنسان ميكدر ينتظرهم طول الليل ؟

- ويظلون يلعبون علينا ؟

- الله يجازيهم .
 - لا ، فطومة ، الامام الميشور يسموه أبو الخرك .
 وسعل محتقن الانفاس . قالت له متفجعة : الماي فاير . تعال
 خش ، واشرب ماي حار . إمتنع مفضلاً أن ينتظر حتى يفتح حسين
 العطار دكانه ، ويعرف ماذا تعني هذه الكتابة التي يقف أمامها
 مشدوهاً ، عاجزاً يتميز غيظاً . من قبل علقوا قطعة سواده ميتة ثم
 فأراً . ومرة لطحوا بابه بنتانة ، كل ذلك فعلوه وفهم الإساءة ، وصمم
 على أن يظفر بهم ، وينتقم . والآن لا يعرف ماذا يقصدون بهذه
 الكتابة . خطوها بصبغ أحر جسور ، وملأوا بها القسم الأعلى من
 الباب . كيف خطوها ؟ بالظلمة ؟ وظلت عيناه الصغيرتان تبهلقتان
 بالكتابة الملعونة .

جاءت زوجته بقدح الماء المغلي . وجلس يحترسه .
 واقترحت المعجوز .

- أجيب لك وصلة وماي حار وتمسحها ؟
 - إشلون أمسحها ؟ .. أريد أعرف إش مكتوب بيها .
 - الله يعلم - شمريت المعجوز ذراعها - يمكن فشار .
 - لا . أريد أعرف - قال بتصميم - بس اليوم ، العطار اتأخر .
 وينك يا بو علي قالها متضرعاً . فردت عليه زوجته :
 - لو ولدنا هنا ! . جان هسه قروها ، وما خلونا بحيرة .
 قال الشيخ مغتاظاً :

- هجولوههم .. خلو البيت يصرصي .
 وغرق في سهوم ثقيل أفاق منه على صراخ درقة دكان وراء
 العطفة . نهض في عجالة وقال ملهوفاً .. أجه حسين ! « وركض
 كالطفل تاركاً قدح الماء على المقعد » .

- وبعد دقيقتين عاد مع رجل ربع القامة بيضوي الوجه أشبهه
وصبح المجوز بالخير ، وسألها عن الصحة . فاستعجله الشيخ :
- خلي الصحة على كتر .. كُلي اشمكتوب هنا بالأول .
 - رفع الرجل رأسه إلى الباب ، وبخلق بالكتابة .
 - ها ؟ .. إش مكتوب ؟
 - إقترب من الباب ، ورفع أصبعه إلى الكتابة ، وكأنه يتهاجها .
 - إش مكتوب ، حسين ؟
 - مكتوب ؟ ! . مكتوب .. شيل .
 - شنو ، شنو ؟
 - مكتوب : شيل .
 - هيجي ؟ دفعة واحدة .. شيل !
 - أي ، بلي ، شيل .
 - صمت الشيخ مراجعاً نفسه ، ثم قال بلهجة أخرى .
 - آني عرفتها من الأول .. يريدوني أشيل .
 - كان بصر حسين ما يزال عالقاً بالباب ، وكأنما يريد أن يتأكد
أكثر مما رأت عيناه . وكان الشيخ ينظر إلى وجهه في لهفة وترقب .
 - ربما يراجع فكره آخر الأمر . هكذا ! دفعة واحدة شيل ، ليس من
المعقول أن تملأ كلمة واحدة هذا الحيز الكبير من الباب شيل !
 - شيل ، بس ؟
 - أي ، نعم ، شيل . هياتها حي على الصلاة شين ي ، لام . شيل .
 - وهذا عقلهم ؟ أشيل ؟ البيت اللي تزوجت بيه أشيل منه ؟ البيت
اللي غرغرت بيه أمي وأبويه أشيل منه ؟ عجيب !
 - قال حسين وقد كف عن البهلقة ، ولاح كدر على وجهه
الاشيب .

- واحد يتجفه الشر .
- حنق الشيخ ، وقال :
- هذا موتجفي الشر .. هذا يعني تنصي للشيطان .. وذ .. وذ
- تبوس ايده : زين باجر عليك واحد ، ويكلك شيل من الدكان اللي صار لك بيه عشرين سنة ، يعني أتشيل ؟
- أشيل .
- يابه متروح على شغلك ! شنو قرقوش ، هولالكن ؟
- ايه ..
- وأحس الشيخ بأنه أساء إلى حسين . التفت إليه فرآه قد نكس رأسه وتحرك قائلاً .. عن اذنكم .. خليت الدكان .. تنكضي ... ولم يقل الشيخ شيئاً كان واقفاً أمام الباب لما يزل فرأى الكلمة الحمراء تسخر منه . تضحك على شيبته أنا أبوك يا حيدر .
- تعال خش ، عيني .
- آه ، لو أعرف منو كتبها - وكز الشيخ على أسنانه .
- تعال خش ، عيني .. صدرك راح يهيج عليك .
- دخل البيت وراء زوجته . كانت الشمس في الأعلى تعكس كل نورها على الفناء . كانت هناك على الظليلة الخضراء للشناشيل صعد الشيخ وزوجته الدرجتين إلى الديوخانه ، وجلس على تحت خشبي ، بينما آثرت العجوز الجلوس على الأرض وراء سخان الشاي في مكانها منذ ثلاثين عاماً تقريباً ، كانت الديوخانة إذ ذاك مفروشة بالسجاد . وكان هادي يجلس إلى جانبها . ثم جاء الاولاد . وكبروا ودخلوا المدارس ، والكليات ، وتوظفوا . ودخلت الكراسي إلى الديوخانة . ولكن العجوز تعودت الجلوس على الأرض . تتربع على السجادة ساعات دون أن تنمل رجلاها . ولا تقرب الجلوس إلى

الكرسي . عنّ للشيخ أن يسأل فجأة :

- فطومة ، تذكرين جم مرة بيضنا الديوخانة؟

- ما أتذكر .

- أكثر من أربع مرات نحسب من تزواجه . هاي مرة ، ومن طهرنا

الولد هاي مرتين . ومن تزوج حيدر . هاي ثلاثة ومن تزوج شاكر

هاي أربعة ، وقبل ما يطلعون الولد هاي خمسة .

لم تحب العجوز . كانت منشغلة بصب قدح شاي .

وقدمته له . وقربت طاسة الكوز الكردي المنقوع بالماء . تلفت

الشيخ في الجدران وكأنه يستقرئها . ذات صيف جعل الحائط الذي

أمامه بالفراغ ، وأتى ببناء ، وانشغل معه يومين يراقب كل لبننة

كيف توضع في مكانها . كان يقول للبناء : أريده يعيش لولد ولدي ..

أريده متين . والسقف؟ نظر إليه في وله . لم يكن قبل زواج حيدر

مغطى بالالواح . ولما تزوج حيدر غطاه بالالواح الخشبية على أشكال

معينة . وصبغة باللون الأخضر الفاتح وحين كانت الشمس تنعكس

عليه في الضحى كانت الديوخانة كلها تلوح خضراء خضرة زمردية .

أوه . كان سرير العرس هنا ، وصوان الملابس هناك . والتواليات

بمرآته الكبيرة . ويومها استحي أن يدخل . ثم صعد العروس أو

العروسة إلى الطابق الثاني بعد شهر يسمونه شهر العسل .

- الجاي مالك راح بيرد - . ماريد .

وترك التخت . وهبط الدرجتين إلى الحوش ، نزلت الشمس على

الشناثيل . ومست درابزين الممر المؤدي إلى الحجرة التي كان ينام

فيها حيدر وزوجته . من هنا صاح على حيدر يوم الدخلة « من

دخلت آني متأخرت هيجي . أيه شباب هيجي وكّت » . وكركر من

الفرح . كانت الأرض لا تحمله من الفرح . ثم تزوج ابنه الثاني

وحلف أن يزوج ابنه الثالث قبل أن يموت. حلف على ذلك بشيئته. تنكّص رجلي هذي أم الروماتزم، أصل العلة والبلية. وكانت زوجة حيدر تنتظر مولوداً. وهو سلطان على البيت وفي الصباح، قبلته العروس الثانية من رأسه. وكّعت عليه. وهم أن يقول شيئاً ماجناً فخجل. كان ابنه يراقبه. يريد أن يغلط.. أنا أبوك يا حيدر. كان الفصل صيفاً. وكان جالساً على الكرسي في تلك البقعة التي يتأملها الآن. بين حب الماء والدرج. كانت الشمس تملأ الحوش أيضاً. وصاح جالساً على الدرج. صرخ به «كّوم، دتنزل العروس» ونزلت الآن عروسه القديمة متوكئة على ركبته، ولما اقتربت منه قالت:

- إشلون؟ صدرك اليوم راح يهيج عليك.

ما زال حب الماء في مكانه أخضر عند الجانبين، والدرج الذي نزلت منه العروس مترباً تأكلت خشباته الموضوعة في حد كل درجة. وفي الجانب الآخر الحمام.

- فطومة، تذكرين إشن كدّ تعبت لما بنيت الحمام؟

- هواية.

- ردتهم ميطلعون، البيت جبير يضم عشيرة، جانوا يريدون حمام سويت لهم حمام مال ملوك. بيدي هذي المكرفعة بنيت الحمام كل شي سويته بيديه، كل شي على مودهم والمطبخ قرب الحمام مبلط بالطابوق وفي عنقه مائدة كان حيدر يتغدى عليها. والآن مهجورة، لأن المجوز لا يلذ لها الأكل إلا على الأرض. لأن المطبخ يشعرها بالإختناق، ها هي احجار المطبخ الأرضي، آثار الدخان على الحائط، وهناك على الجانب الغربي للبيت آثار أقوى منها، حيث كان هادي الحاج رشيد يهرس الهريسة للفقراء في قدر كبير يملأ الضلع

الغربي لمستطيل الحوش كله ، كان البيت يوج . كان البيت دائماً
يضج بأهله . والناس خاشين طالعين . جان يوكف عبالك ريس
عشيرة . الدنيا متحملة . جان يَكُول .. بس الله يخلي البيت عامر .
لاخلي الدخان يصعد لسابع سمه .. أستغفر الله .. كفروني من
الصبح .

- فطومة بعد شهر للهريسة - إذا الله خلانا طيبين . يخلينا ،
شمسوين عنده؟ ناهبين مال الناس؟ فطومة طلعي من مخج . آني
اطلع من البيت . راح ابقه وهالسنة اسويها عنجلية . كل الناس
أخليهم يَكُولون هذا أبو حيدر .

- ويخلوك .

- يخلوني .. منو ميخليني؟ .. كوتره ، أطلع من بيتي؟ فطومة ، بيت
الانسان وطنه .

ساعة ١٢

قبل أن أفتح عيني شعرت بالألم حاداً في رقبتي وفي كتفي . كان جسمي كله قطعة ثقيلة لا أستطيع له حراكاً . كانت أذني اليمنى توشوش بلا انقطاع . كانت رأسي تؤلني . وكانت الحرارة تتوهج في مفاصلي ، وفي بدني كله . فتحت عيني بثناقل ، فرأيت أمام عيني وجهاً مستديراً يحدق بي . ولأول مرة لم أعرف من هو . كان بلا شارب . وعيني لم تتبيناً ملامحه بوضوح . كنت أشعر بدوار في رأسي . كنت أشعر بحمى . أنا محموم ، وعلى عيني غشاوة ، وفي مفاصلي خدر ، وكنت أحس مثل لسع النار على كتفي الأيمن . كانت كتفي تلتهب ، ورقبتي كلها متوهجة . وإذا رأيت الوجه المثل عليّ يتمطى تخيلت أنه يتسم لي . كنت أحس به قريباً مني حتى أردت أن أكلّمه . غير أن فمي كان جافاً جداً ، وشفتاي خدرتين . وبعد قليل أحسست بنور أصفر في جهتي اليمنى أضاء الوجه فجأة . وكنت أريد تحريك رأسي لأرى مصدر النور ، والعالم المحيط بي ، غير أن رقبتي كانت متصلبة مثل الحشبة . كنت لا أرى غير الوجه المستدير ، وخطوط طويلة قمحية اللون ، تمتد فوق رأسه . كنت في عالم مرتجف حاد . وتخيلت أنني أحلم . ووددت أن تنتهي هذه الحال المحمومة بسرعة . ورأيت الوجه المستدير يتمطى ثانية . ثم يناديني باسمي . فتحت عيني جهد مستطاعي . وكان جفناي متصلبين مثل العظم . وأحسست بالوجه يتحرك ، ثم انتصبت أمامي جثة ضخمة تدلى منها كرش . وخيل إليّ أنني أعرف صاحب الصوت . كان يكلم شخصاً آخر بجانبه ولم يكن غريباً عليّ . ومع أنني كنت أسمع من أذن

واحدة ، الشوشة لم تنقطع ، فقد أدركت بعض ما يقوله . كان يتحدث عني . كان يشير بيده إليّ ، كان يذكر اسمي ، واسم والدي وأخي ، ورأيته ينحني عليّ ، ويسألني عن حالي الآن . فلم أجبه إلاّ في سري . كان فمي معطلاً عن الكلام . فعاد مرة أخرى يغطي وجهه ، ورأيت في فمه بعض الأسنان . وكان صوتاً عميقاً وحاداً ومثيراً لأعصابي . ورأيته يرفع حاجبيه حتى استطال جفناه ، ويقرب وجهه من وجهي ، ويجس جهتي باردة ، ويقول « علوان .. إشلونك؟ .. » ثم « آني محمود أبو صبيحة يعني متعرفني؟ » وابتمسم . وكان النور الاصفر يقترب مني ، ويجعل الأشياء مجسمة . ورأيت محمود يلتفت وسمعت صوتاً نسائياً يخاطبه . فقلت في نفسي .. هذه صبيحة . وحاولت أن أرفع رأسي ، غير أنني لم أستطع . وكان كل شيء يبدو كبيراً ومتورماً حتى تلك الأعمدة الخشبية القمحية اللون ، الممتدة فوق رأسي . حركت شفتي وطلبت ماء . فغاب محمود وتركني وحدي . فأبصرت ضوء الشمس الأصفر يزحف على سريري وبدأت الغشاوة والضوء يتأوجان ، وأطل عليّ وجه صبيحة يسبح في ضوء الشمس ، ويقطع العمود الأزرق القادم من يميني . وكانت ضفیرتاها متدلّيتين عليّ من خلف اذنيها ، وشفّتاها تبسمان . فقلت في نفسي « هذي مو صبيحة » . فقد بدت مثل طفلة . وخجلت أن أكون ضعيفاً أمامها على هذا النحو . وكانت عيناها الواسعتان تحدقان بي ، وتطلان عليّ من فوق ، وتبعثان في نفسي إحساساً بأنني أحلم . حركت يدي ، أمسكت بضمفیرتها ، وداعبتها ، فهزت رأسها ، وتأرجحت الضفیرتان ، وتحركت شفّتاها . وجاءني محمود بالماء ، ورفع رأسي عن الوسادة ، وعندما شربت الماء أحسست بشيء من الراحة . وكان محمود وابنته يرقبان تحرك شفتي ، ثم رأيت الضفیرتين تقتربان مني

حتى ارتخى بعضها على صدري . ومست صبيحة جبيني بيد طرية
وقالت « سور سليان .. » . وكان صوتها خافتاً ، وناعماً . فسألني أن
تأتي بماء لأغسل وجهي ، ولأزيل هذا العالم المرتجف المحموم من
عيني . فتحولت عني . ورأيت ثوبها الأحمر ذا الورود يسطع في ضوء
الشمس ، وضيئة واحدة كانت على ظهرها . وجاءني بماء دافئ ،
ومنشفة ، وغسل محمود وجهي بكفه المتصلبة الراححة . وشعرت بلفحة
هواء تهب على وجهي . ثم استطعت أن أحرك جسمي قليلاً ، فرأيت
الغرفة كلها . هذه غرفة أخي . أمسكت برقبتي ، فأحسست بها
مربوطة ، وكذلك الجزء الأعلى من كتفي الأيمن . فقلت لمحمود « منو
داواني » . فابتسم . ورأيتة يجلس على حافة السرير . وكنت أنتظر
الجواب من شفتيه . فقال في ثقة :

- « عمك محمود! .. يعني بس نزين روس الناس ؟ »

- قلت « هسه يحمل الجرح »

غير أنه هزّ رأسه وقال بصرامة :

- « لا تخاف .. أنتم أولاد المدارس على الله ماترضون .. »

وتحول إلى ابنته ، وهو يهرش جسمه . وعلى مقربة مني كانت
صبيحة تفتح ضفيرتها ، وتضفرها من جديد ، واضعة المشبك بين
أسنانها . وبعد ذلك ساد الصمت . ثم جاء الذباب وبدأ يطن . وداخل
رأسي طنين مثله . والشئ المؤلم إنني لا أستطيع تركيز أفكاري . أنا
محموم .. حمى موجعة . بالأمس رأيت أمي ذاهبة إلى المستشفى حافية
القدمين ، والدنيا مطر ، وعيناها رمداوان . وعند العصر كانوا
بانتظارنا . منْ دلم على مكاننا؟ .. جواسيس .. خونة ضعاف
النفوس .. ما إن ابتعدت عن أصدقائي مسافة حتى سمعتهم يأمروني
بالوقوف « أو كَف .. لو أضربك » كانوا يمدقون باصدقائي

الآخرين .. بعد أن هرولت مسافة .

والآن رفت عيناى فأغمضتهما . وكان الظلام من خلف جفني
المقفلين وفي حواشيه احمرار ، ووسط الظلام رأيت أعمدة بيضاء
ترتفع وترتفع . ومعها يرتفع قلبي حتى خفق خفقاناً مرعباً . وتملكني
خوف . ولما فتحت عيني رأيت محموداً يعود إليّ ويقول :

- « شلناك على ظهرنا »

فصحت به :

- « عمّ تتكلم .. »

فقال :

- « عن الناس .. عن الطيبين .. شافوك وقعت وشالوك حق
ليلزموك .. وختلوك بذكاب محسن المزين » .

وقلت في نفسي « هذا شعبنا .. أولاد حمولة »

وقال أبو صبيحة :

- « ما يستحون .. يريدون يقتلون هالشباب الحلوين .. »

وكانت الشمس قوية . والبارحة جانت الدنيا تمطر . غير أن
عباس قال « الله ويه الشعب .. باجر لازم تصحى » . وضحكنا آخر
الاجتماع . كانت صورة جعفر أبو التمن تطل علينا ، وامرأة تحمل
طفلتها ويدها غصن زيتون .

حاولت أن أفتح عيني أكثر من ذي قبل . وأوسعها وأزيل ما
لصق منها . كان فيها رمض . لعلني أرمد مثل أمي الرمداء . والآن
أخذت الشمس تنزلق على صدري ، قادمة من جهتي اليمنى ، والغرفة
واسعة ، وجسمي ما زال حذراً .

قلت لمحمود :

- « جسمي محلول .. »

فقال :

- « البارحة كنت تقول كتفي مخلوع .. بينما الرصاصة خدشت رقبتك خدشاً .. والناس وقفوا لك حراساً .. وأنا بالآخر ضربتك إبرة مورفين . »

البارحة كانت الدنيا رذاذاً . وعباءات سود تركض .. أو كف .. ما أو كف .. لو تطلع روحهم ما أو كف . ثم جاءت الرصاصة وارتطمت . وكأنها دخلت في أذني .

آه .. لو يزول هذا الألم من رأسي .

- « عمي محمود .. لماذا الأفيون ؟ .. »

- « أفيون ؟ .. ما هذا الكلام ؟ .. مورفين »

- « أي مورفين . »

- « كنت تصرخ من الوجع .. »

أظنه يكذب . أنا لم أبك حين خرقت كفي رصاصة في باب المعظم . والناس كانوا يتساقطون من حولي .. والدنيا دخان أزرق ، ودم .

توكت على يدي اليسرى ، واعتدلت في جلستي . والغرفة كلها شمس . وبالامس كانت الدنيا سوداء .. وكان عباس يلعب بشواربه . وكفه كانت مهشمة الأظافر . رأيته مشوهة قائمة اللون فلو أدخلوه الآن في سراديبهم فماذا يهشمون منه . ولكن الثلاثة الآخرين لهم أظافر . ولو تأخرت لحظة لكنت الآن معهم . ولكن لن أعطيهم شيئاً . بمقدساتي لن أعترف .. فليقلعوا أظفاري ، وشعري .. ولكنني لن أعترف .

وفي عيني عباس رأيت البارحة إصراراً . وكانت حالته تقدم لنا الشاي وتقول في صوت خافت « محروسين بالله .. » وفي الغرفة رأيت

كتباً ومزهرية، وخريطة العراق. وصورة أخرى في طيات أحد الكتب.. ورفاقي كانوا متحمسين. وفي الليلة الماضية باتوا في السرايب. غير أنهم لن يعترفوا.. لكن لو اعترف أحدهم.. لا لو؟.. لا.. لو اعترف.. فرضاً؟.. هذا شيء شنيع.. هذه مذبة..

٢

واعترفتي رعدة. وكان محمود يحدق بي. وابنته تجلس على الأرض واضعة يدها على خدها. فسألته عن الساعة.. فقال: تسعة تقريباً. لو ذهب أحد إلى إبراهيم، ونقل له الخبر لربما استطاعوا عمل شيء.. بالأمس قال لي سأظل في البيت حتى الحادية عشرة. واتفقنا أن نلتقي في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً. ولم نكن نعرف أن الأمور تتعقد بمثل هذه الصورة.

قلت لمحمود:

- «أريد أن أبعث صبيحة..»

قال:- «أين؟»

قلت «هي تعرف البيت..»

وكانت صبيحة تستمع لحديثنا. فأقبلت عليّ وقالت «تؤمر عيني». فطلبت إليها أن تذهب إلى بيت إبراهيم بالبتاوين، فأومأت برأسها. وذهبت ترتدي عباءتها. ثم جاءتني بورقة وقلم. وبصعوبة كتبت سطرين. وبعد قليل سمعت بكاء طفلها يريد الذهاب معها. وخلت الغرفة. وران الصمت. وكانت معي الشمس الدافئة والهواjes. غير أنني شعرت بنوع من التحسن في حالتي. وكانت رأسي مثل طبل قرع منذ زمن، وبقيت وشوشة خافتة. ومن الزقاق سمعت أصوات الباعة المتجولين. في محلتنا بالكرخ تجلس

بائعة الباقلاء ، وتنقع الرغيف بأربعة فلوس . وأمي في المستشفى لا تستطيع اليوم أن تنقع رغيف الخبز .

وفي المستشفى رائحة غريبة ، وموتى وأنصاف موتى ومشرحة . وأنا ما أزال محموماً . لو مت البارحة لنقلوني إلى المشرحة ، أمي ليست لها عينان سليمتان لتبكي عليّ . لعل رفاقي بالأمس قضوا ليلة مربعة .. في السراديب .. هذا شيء أكيد . سيجردونهم من ملابسهم ، ويصبون عليهم الماء البارد .. ثم يقولون لهم ماذا كنتم تقولون في الاجتماع ؟ .. ماذا تريدون ؟ .. تحاربون الحكومة .. مخايل .. أنتو زعاطيط .. شعركم بالسياسة ؟ ويقولون لهم كلاماً بذيئاً . وذات مرة شتموني في موقف الكرخ بإقذاع . وكان معي في غرفة واحدة لص وثلاثة متهمين بإدارة بيت للدعارة . وكنت ذاهباً إلى الكلية لأداء امتحان في الأدب الحديث . وفي المساء جاءت امرأة حلوة تملك علكاً ، واخرجت الثلاثة ، وبقيت أنا واللص . لعل صبيحة الآن وصلت إلى إبيت إبراهيم . في الساعة الثانية عشرة إلا رباعاً كان علينا أن نلتقي . ومعنا الشعارات . وفي الساعة الثانية عشرة ننتقل . فلو اختبأوا لنا خلف الاسوار تحصل مذبحة . سيطلقون النار علينا بشدة ، ويفتكون بنا . وفي حادثة باب المعظم كنا نتقدم رغم الرصاص . وكانت يد علياء ملطخة بالدم . ومحسن وقع على مقربة مني . ولم أسمع ماذا قال . ثم خرج الدم من فمه ، وسال من طرف شفته . ورقد على الأرض . ولو اختبأوا اليوم خلف الأسوار .. لو أن أحداً قال شيئاً عن المظاهرة ، وأنا هنا ، والشمس تزحف على اللحاف . ماذا أقول لهم ؟

عادت صبيحة ، ورمت عباءتها . وقالت « ماكو أحد بالبيت » ثم ناولتني الرسالة مطوية . قلت لها « لو انتظرت قليلاً .. كان

شفتيه . قالت « بيتهم مقفول .. » ورأيها تهز رأسها كالولهي . وكأنها أحست بمصيبة . وقالت « اروح اينما تبعثني .. أروح » وكان صدرها الجميل يعلو ويهبط . ثم حدثتني عن زوجها قائلة « الصبح كان أخوك يلعب نوري السعيد ، وأبو اللى جاب نوري السعيد » . وكانت تتكلم بشفتين لامعتين ، ويدها تتكلم معها . وقد بدت لي مرتبكة ، وحلوة جداً ، أهدأها رفت كجناحي فراشة . فشعت فرحة في نفسي . ولم أجد بدا من الخروج . أريد أن أراقب الأمر بنفسي . أريد أن أمنع كارثة . وحالتي الآن جيدة .

صاح بي محمود :

- « ستقتل نفسك » .

وكان يجلس على صندوق ويربر . والحياة بدت لي مسرعة . وصبيحة كانت أشجع من أبيها . واقتربت مني ، ونظرت إليّ بعينين سوداوين جداً . كأن بهما كحلاً . فقلت في نفسي « الحياة حلوة .. » . ورأيت محموداً يرفع إليّ عينيه الجاحظتين ، ويتقدم نحوي . وكنت أعرف أنه سيثور . وقال لي « جسمك حار » بعد أن مس جبعتي ، وشعرت بقشعريرة في ظهري .

نهضت من السرير . هذا سرير أخي . لقد أضجعتني صبيحة وأخي على فراش عرسهما . وكانت رجلاي رخوتين . فسرت بتأيل . ورأيت الدنيا تلف بي . ما يزال المورفين يسري في دمي . وكان محمود يقف أمامي مثل الجاموسة ، يريدني أن لا أذهب . فأحسست به ثقيلًا كرهياً . وكان يلف على رأسه عمامة ترخى على جبهته . ويضع يده في حزامه المتدلي منه كرش كإلية خروف . وقال لي :

- « سيلزموك .. »

- « راح أمشي بالدرابين » .

ولم يقتنع . رأيته يلتفت إلى بنته ، ويتحدث إليها عند باب الغرفة . وجاءت صبيحة إليّ وهى . وقالت « فدوة أروح لك لا تطلع بره .. خلي أبويه يروح .. » قلت لها « لا تخافي » . وتوكلت على كتفها . ورأيتها تصفق كفا بكف . ثم جاءتني بينطلون ، ومعطف أخي قائلة « ثوبك كله دم .. » وساعدتني صبيحة في ارتداء ملابسي ، ووضعت الكوفية على رأسي .. وخرجت .

٣

في الخارج كانت الشمس أشد سطوعاً ، وأرض الزقاق ما تزال مبتلة بماء المطر ، ونسمة شباط باردة . وعلى باب الزقاق أبصرت بعض الناس ، وبائع شلغم . وكنت أسير ببطء ومع ذلك فقد كنت أحس بأن رقبتى تهتز . وكأن الأرض مليئة بالحفر . وكان رأسي يؤلمني ألماً شديداً . والجرح يوخزني وخزاً متواصلاً . وتمنيت أن أمنع رأسي من الحركة وأمسكه بين يدي . في كل حياتي لم يكن رأسي بمثل هذا الثقيل .. أو اه ليتني أستطيع التخلص من رأسي .

رأيت ساعة الساحة مقابل الجسر الجديد تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق وكان الناس في الساحة كثيرين . وخيل إليّ أن بينهم من يراقبني . لو أنهم أبصروا بي الآن لأدخلوني مع رفقاتي في السرداب . ثم ان المذبحه ستقع . وفي سراديبهم سينزل عدد آخر تضيق به السجون . في الانتفاضة اضطروا إلى إخراج النشالين والمجرمين من المواقع ، وحشروا في محلهم الطلبة والعمال والمحامين . وكان موقف الكرخ نتناً ، فيه مرحاض مكشوف ، ونوى تمر قديم ، وحشرات تلتصق بالجسم ، ولا تخرج منه . وفي الليل كان الهواء ثقيلاً . والجميع كانوا يشخرون ، ويتنفسون جيفة . ولو كنت هناك لما

عالجوا جرحي ، وظل الجرح يتنفس جيفة . ويتقيح . وتبدأ الحياة بالتسم . ولكنني الآن أسلك أزقة ضيقة حتى لا يروني . والبيوت من حوالي معمة تتغلغل الرطوبة في جدرانها . والشمس في تلك الأزقة ليس فيها دفء ولا تألق . كنت أحس بالدنيا من حولي غير متماسكة . وكثيراً ما رأيت الجدران تهتز ، والأرض تتشقق من حولي مثل حصيرة قدرة . وفي بعض الأحيان كنت أرى الجدران حبلية ، ومتعرجة وبالقرب من الميدان جاشت نفسي . وأردت أن أتقيأ . وشعرت باللهب يسري في أوصالي .. وبقايا الافيون .. أقصد المورفين . وكانت باب المعظم على مقربة مني تسطع في ضوء الشمس . والسيارات الحمراء تملأ جوانبها . سرت من وراء بناية مصلحة نقل الركاب ، في الزقاق الموصل إلى مدخل شارع غازي . وسلكت الطريق الضيق المفضي إلى كلية الآداب . في إحدى الغرف في الطابق الثاني يؤدي زملائي امتحاناً . وأنا أؤدي امتحاناً الآن . ورأيت شارع نوري السعيد قصيراً يتلوى كالافعى .. تلك المنطقة سأراقبها من بعيد . تلك المنطقة سيتجمع فيها الطلاب . وفي الساحة كان كل شيء هادئاً . مر بي شيخ يلبس كشيدة ، فسألته عن الساعة ، فقال الساعة ١٢ إلا جارك . وأمامي كانت ساحة قدرة . وفي الجهتين اليمنى واليسرى أسوار . لعلمهم الآن مختبئون هناك . وبنادقهم مهيأة للقتل . ولم أر أحداً أعرفه . لا أحد من الناس . وفي الجانب الآخر رأيت شرطيين يأكلان الفشافيش . ويبدوان منصرفين عن العالم كله . ليت كل الشرطة مثلهما ! وما خلا ذلك كان كل شيء هادئاً . وأحسست بالدنيا تدور بي مرة أخرى . مشيت في الطريق الموصل إلى كلية التجارة . وعلى الرصيف رأيت بائع شاي وأربع صفائح فارغة يستعملها ككراس . وفي محلتنا يبيع حسن العجمي

الشاي ، ويتعاطى الأفيون . وأنا أكره هذا السم وأكره الشاي الحالي من السكر الذي يشربه . وتمنيت أن أجلس في الشمس الدافئة حتى تكف ركبتي عن الارتعاش . تمنيت أن أرقد على فراش . تمنيت أن أرى أُمي غير دامعة العينين . أن أرى صبيحة تفك ضفيرتها ثم تضفرها مرة أخرى ، وفي فمها المشبك . وبعد قليل رجعت إلى الساحة . كان كل شيء هادئاً . تلك الأسوار تخيفني . مرت بي سيارة جيب ، وسيارة لوزي . في المظاهرات تمتليء اللوريات بالشرطة ، والعصي والبنادق . والآن كل شيء هادئ . وأنا أخاف من الهدوء . في معتقل أبي غريب كان الليل زمهريراً . والسراديب في غير أوقات التعذيب هادئة . ولعل الساعة قاربت الثانية عشرة . وكانت الساحة خالية . مو معقول راح تصوير مظاهرة . لم ألحظ أحداً من أصدقائي . والطلاب الذين رأيتهم يخرجون من كلية الهندسة على يميني اتجهوا إلى الشارع المقابل لكليتهم . ولم يقتربوا من المنطقة . رأسي دايع ، والدنيا مضطربة ومحمومة . والناس قليلون جداً . وفي المستوصف المركزي رأيت الساعة الثانية عشرة وست دقائق . والشمس ترقص . وقلبي يخفق خفقاناً مزعجاً . والدفع يחד جرحي . والشرطيان رأيتهما يشربان الشاي مثل بقية الناس . طوفت ببصري في جميع أنحاء المنطقة لآخر مرة . كان كل شيء هادئاً . وكان شارع نوري السعيد في تعرجه مثل سلسلة مهشمة . ورجعت إلى باب المعظم ، سالكاً الطريق العام هذه المرة . لو أنهم رأوني الآن فلا أهمية لذلك . أنا محتاج إلى راحة . وأعصابي محطمة . ولكنني سألزم الصمت في سراديبهم مثل رفاقي الآخرين . ولن أقول شيئاً . وفي وحدتي سيؤنسني وجه أُمي ذو العينين الرمداوين ، وضفيري صبيحة ، ورفاقي في الخارج ، وصورة المرأة التي تحمل طفلها ، وفي يدها غصن

زيتون ، والصورة الموضوعة بين طيات كتاب . وكانت ساحة باب
المعظم مليئة بالسيارات ، والناس والشمس والهواء الطلق والحياة
الحلوة . وأنا أريد أن أعيش دون خوف ولا مرض وعند بداية
شارع المستشفى رأيت بعض سيارات الشرطة تدخل شارع الرشيد .
أين يذهب هؤلاء ؟ لماذا لا يذهبون ليشربوا الشاي ؟ .. وكان جرحي
ينبض مثل قلب جديد . والمنتظرون عند المحطة كثيرون . فانتظرت
معهم . لو أصل إلى البيت لأقبل عمي محموداً ، وأشكر صبيحة ،
وأنتظر مجيء أخي ..

إنتظرت مجيء السيارات وقتاً طويلاً .. يا ربي .. متى تأتي هذه
السيارات ؟ عيني انقفلت . لو تأخرت دقيقتين البارحة لما كان في
ميسوري إنجاز أي عمل . ثم ان عمي محموداً صار عصيباً عليّ بالبيت .
لا أنا صرت عصيباً عليه .. لا .. هو .. الحقيقة أنا صرت عصيباً .
لو أن الرصاصة نفذت إلى رقبتي لما عرفت اليوم بما جرى .

وتنبهت إلى صوت يقول : المرور مقطوع بشارع الرشيد . ثم
رأيت أحد بائعي التذاكر يهرول قادماً من الجهة الثانية ، ويقول
لأمور المحطة : الدنيا مقلوبة .. المظاهرة بجامع مرجان .. وهوسه ..
واقتربت من المتكلم دون إرادتي . كان شاباً نحيلاً . غير أنه كان
يتكلم وكأنه أحد المتظاهرين . وقبل أن أكلمه سمعت صوتاً محتداً
ينبعث من غرفة المراقبين .. اشدعوه مخبوض بها الشكل ؟ .. ورأيت
بائع التذاكر يهز ذراعيه بعصبية . وهز رأسه هزة مضحكة . ثم يسير
نحو الجهة الثانية من الساحة قافزاً كالأرنب . والركاب بدأوا
يتحدثون بصوت عالٍ . ثم تفرقوا . وصار معظمهم في شارع الرشيد
وبعد لحظات خيل إليّ أنني أسمع صوت طلقات . وكانت ركبتاي
ضعيفتين فغالبت نفسي .. وذهبت .

حلال العقد

انتظرت خروجها في الصباح . كنت أحمل كتي المدرسية وبنطلوني الطويل وأنتظرها . وكان البرد يخشب ساقيّ العاريتين ، وينفذ من خلال القميص الخفيف إلى صدري . كنت أريد أن تخرج لترى هندامي الرياضي ، السترة البيضاء ، والبنطلون الأسود القصير ، والحداء المطاطي ، وتوقن بأنني ، أنا أيضاً ، رياضي وذو قوام رشيق . قفزت على البقعة لأقنع نفسي بذلك وأتدفأ . وانقضت نصف ساعة من اللهاث . ومرت حبيبتي على بعد خطوات مني . القت عليّ نظرة خاطفة خيل إليّ أنها تحمل اشمزازاً أو عدم اكتراث على الأقل . ولما تمالكنت شعوري كانت قد اختفت في المنعطف . ضربت الأرض بقدمي بقوة آذت أخصي . هكذا أجازي إذاً بعد نصف ساعة من الإنتظار الراجف ؟ كدت أبكي . لكن تعذبني تلك الفتاة . في البيت كنت أبكي في حجرتي حرقاً وتدلهاً لها . وكان ليلى أطول من صبر أيوب . وفي الصباح أتلف لرؤياها فأصاب بنكسة وغصة في قلبي .

ركضت عبر جدار المعمل إلى مدرستي حنقاً وتدفئة . وقبل أن أصل إلى شارع الكيلاني ارتديت بنطلوني الطويل ، وبلوزي ، وذهبت إلى مدرستي مكسور الخاطر لم أفهم من الدروس الثلاثة شيئاً . كنت أفكر بها ، واختلق لبرودها الأعذار . وفي الفترة الأخيرة جلسنا في حجرة الدرس . حبسنا فيها البرد وسوء الجو . وكانت الحجرة في سرداب طويل يطل على فناء المدرسة المكشوف

المضرب برمادية الغيوم المتراكمة . وأطل علينا طالب من باب
الحجرة وقال :

- لماذا لا توقدون الضوء؟ .. هل أنتم في الجبهة؟

أجابه طالب ثان :

- لا ، ننتظر أن تشتغل السينما .

قال الطالب :

- قلت لك إن المدرس لا يأتي اليوم . مطر ودراجته معطوبة .

قال الطالب الثاني :

- الله يسمع من فمك . أشتهي أن أكل صموننا وعنبة قرب سينما
غازي .

- عظيم - قال طالب ثالث - أتعرف أي فلم في سينما غازي؟
أجابه ثلاثة طلاب مرة واحدة :

- إخوان كورسيكا .

- أموت على كورسيكا . هذه هي السيوف ولا سيوف بدرلاما .
وتسريت قليلاً . وغبطتهم على خلو بالهم .

صاح الطالب المطل من الباب :

- راح وقت السيوف . الآن سلة ملطوف .

قال زميلي الذي يشاركني في رحلتي ، وكان حتى الآن صامتاً إلى
جانبي :

- في أي سينما؟

- كيف أي سينما؟ .. ألا تعرف ملطوف؟

قال زميلي في نفي قاطع :

- لا .

- وهتلق؟

- سامع بيه؟
- وستالين؟
- أيهما ، أبو شوارب أم أبو جروت؟
- قال الطالب في كبرياء :
- ماذا تعرف من الدنيا إذا؟
- أجاب زميلي وهو يجاريه في كبريائه :
- أعرف آرسين لوبين .
- سأل الطالب :
- من هذا؟ .. ملك أو قائد جيش؟
- لو جعلوه لرفض .. يفتح أكبر خزانة بدقيقة واحدة .
- يعني حرامي .
- أحسن . نحن نعرف حراميتنا . قبل أن يدخلوا البيت يوقظون كل أهله .
- صاح المراقب وكان يخط اسم الدرس على السبورة :
- عندنا درس دين . فلا تتحدثوا عن الحرامية .
- أخرج زميلي كتاباً من رحلته ، ولوح به للطالب .
- هل قرأت هذا الكتاب؟
- نزل الطالب درجات السرداب وقال وهو يتقدم نحونا :
- الليمان العائم؟ .. ما معنى الليمان؟
- قال زميلي :
- يعني باخرة .. يسلكون وجه رجل في باخرة ويلصقونه على وجه شخص آخر . يا للروعة .
- جاء بعض الطلاب إلى رحلتنا ليروا الكتاب . فاغتاظ الطالب

وذهب إلى رحلته ، وجلب من هناك كتاباً أحمر الجلد . وقلد زميلي في لهجته :

- هل قرأت هذا الكتاب؟

قال زميلي :

- مشكلة التمويل؟ .. وماذا يخصنا من مشكلة التمويل؟

- كيف لا يخصنا؟ .. أتعرف لماذا تكون مشكلة التمويل؟

- لأن السوق فارغة .

- ولماذا فارغة؟

- لأنها مملوءة حرامية .

قال الطالب :

- لا . أنظر . لو أن عامل أحذية يشتغل في مصنع للأحذية فيصنع

كل يوم حذاءين ...

صاح المراقب :

- لا تتحدثوا عن الاحذية .. عندنا درس دين .

قال زميلي :

- أنا لا أفهم في الأحذية .

قال المراقب :

- قلت لا تتحدثوا عن الأحذية .

قال الطالب :

- بماذا تفهم إذن؟

- بأرسين لوبين . مثلما يفهم مهدي بآلام فرطر . تمام مهدي؟

كان يسألني . كنت وراء ظهره أوسد ذقني براحتي ، وأنقل

بصري بين المتجادلين ، ولا أشترك في الجدل . كنت لحظة معهم وثلاثاً

هناك . فلما باغتني السؤال ثبت بصري به قليلاً ، وبسطت يدي في

حيرة لا أعرف بماذا أرد وأنقذني الجرس. وكان مراقبنا صارماً صرخ بالواقفين أن يجلسوا في أماكنهم حالاً وأن يكفوا عن الكلام غير اللائق بدرس الدين.

إلا أن مدرس الدين لم يحضر. أغلق المراقب باب السرداب علينا وأثار المصباح. وبقينا نترقب المدرس في وجل. كان رجلاً بديناً بطيء الحركة لا يسلم الجالسون في الرحلات الأولى من لعبة المصنوع من التبغ. وكان يخاف المدير خوف الحية، ويوصينا بأن نغلق الباب ما إن يذق الجرس. وحين يصل ينقر الباب بأطراف أصابعه نقرات خفيفة فلا يشعر المدير به. وكنا لا نتمسك بوصيته إلا بقدر ما فيها من فكاكة. تارة نتركه ينقر الباب طويلاً، ثم يدقه بجمع يده وينادي، ولا نفتح الباب إلا حين نسمع صوت المدير خلف الباب. وكان ذلك يناسبنا إذ إن المدرس يقضي نصف الدرس عابساً غارقاً في جهامة تفكير. وتارة أخرى نسد الباب دقيقة ثم نفتحه على مصراعيه.

والآن فعلنا ذلك. بعد دقيقتين قال زميلي المعجب بأرسين لوبين:

- هه. مرت خمس دقائق.

قال المراقب:

- إسكت. مرت دقيقة واحدة.

واحتجت أصوات على المراقب فأسكتها، ثم عادت تضج فلوح لها وأخيراً اضطر إلى فتح الباب. وكان المدير في شرفة الطابق الثاني، فلما رأى المراقب سأله:

- ألم يأت مدرسمكم؟

- لا، أستاذ. مدرس الديانة غائب.

نظر المدير إلى ساعته . وبعد أن ذرع الشرفة عدة مرات أشار
الينا بأن نخرج في هدوء مثني مثني .

ورأيتني وزميلي في الشارع . كنت لا أريد الرجوع إلى محلتنا . لا
أريد أن أرى وجه محبوبتي هذا اليوم . كانت الفيوم قد أخذت
تنفشع ، وبدت رقعة زرقاء كبيرة باتجاه الباب الشرقي . وبدت
الدنيا وكأنها توشك أن تضحك . وغمرني إحساس بأن السلوى مع
السحاب المتقطع . قلت لزميلي :

- دعنا نتمشى ، فاليوم اثنين .

قال زميلي مرحبا :

- لطيف . لعلي أجد روايات جيب عند سينما غازي .

أدهشني هذا الغرام الشديد بروايات كنت أخشاها وأراها عملة
وبلا شاعرية . فسألت زميلي وقد عبرنا بركة ماء المطر أمام
مدرستنا ؟

- صبيح ، لماذا تحب روايات الجيب ؟

نفض صبيح الطين من حذائه وقال :

- لماذا أحبها ؟ ولماذا يحب الناس دخول السينما ؟ لماذا يحبون رؤية
أماكن كثيرة ؟ للفرجة ، واكتشاف شيء جديد . الدنيا كلها فرجة .
وروايات الجيب تريك الدنيا . وأنا أحب أن أرى العالم كله . كل
المدن والشوارع والانهار . وأنت لماذا تحب آلام فترتر .
لم أطرح على نفسي هذا السؤال عندما صار آلام فترتر كتابي
المفضل ...

قلت :

- كلام حلو . عندما أقرأ آلام فترتر أبكي .

قال صبيح :

- أما أنا فلم أفهم منه شيئاً . عندما أخذته منك قرأت منه صفحات ولم يعجبني . ليس فيه إلا قلبي وروحي وكلمات زائدة ...
قلت :

- لو قرأته كله ، لرأيت كم الحب جميل .
قال صبيح وهو يتخطى سيل ماء ينصب في البركة الكبيرة أمام مدرستنا :

- بل الحب قاتل . العشاق يموتون جميعاً . أنظر إلى مجنون ليلى ، وروميو وجوليت . ولماذا يقتل الإنسان نفسه ؟
قلت :

- ليس الحب قاتلاً دائماً .

قال صبيح بإصرار بغيض :

- الحب الصحيح يقتل .

- لا .

- يقتل ويمرض .

وزفرت وأنا وراءه وصدقت به . أنا موشك أن أموت حباً .
وعجبت من أمر هذا الفتى الذي يقرأ روايات العصابات ، ويفهم بالحب فهم أكبر عاشق . وقلت لنفسي هل أبوح له بسري ؟ ربما يرشدني إلى حل . وشمنا رائحة شلغم دافئة تحاشيتها لكيلا أقطع حديثنا .

قلت :

- لكن الحب ليس بيد الإنسان . متى أراد أحب ، ومتى أراد لم يحب .

قال صبيح في حكمة زادت دهشتي :

- الحب مثل تدخين السيكارة . الكبار يشربون كل ساعة سيكارة .

والصغار يأخذون عليه التاج الذهبي ويدخلون السينما ويدخونها كلها قبل انتهاء الفلم. أتريد أن تأكل شلغم؟

كانت عربة الشلغم أمانا. وأكلنا الشلغم صامتين. وكنت أفكر كيف ألحم حديث الحب الذي قطعه بخار الشلغم. قلت في مجازفة:

- طيب، وإذا وقع الإنسان في الحب، كيف يخرج منه؟
 - إذا كان يعرف كيف يقع فيه، يعرف كيف يخرج منه.
 - وإذا كان لا يعرف؟
 - أوه. أهذه مشكلة تموين أخرى؟ وماذا يهمك من هذا
- قلت كالهامس:

- لأنني واقع.

دحرجت هذه الجملة، ونحن نهم بعبور شارع غازي مقابل سينما غازي. دحرجتها عمداً في ذلك الوضع بالذات لأتفادى الارتباك. ولكن زميلي توقف وسط الشارع غير عاين برتل من سيارات الجيش الإنكليزي مرت أمامنا خطفاً. ونظر إليّ في دهشة اختلط فيها الحزن والفرح وكأنه يقول «هذا أول عاشق في الدنيا أراه حياً». وتوقعت أن أسمع شيئاً موجعاً عند وصولنا إلى الرصيف الثاني. إلا أن في الرصيف الثاني كان بائع كتب قديمة يفرشها على الأرض. روايات جيب صرفته عن كل شيء. روايات جيب بأغلقتها الملونة، ومسدساتها ونسائها الاجنبيات. وقرص أمامها. وأخذ يقرأ عناوينها بتلذذ وصوت مسموع وكأنه يعدد أسماء أصدقاء أعزاء عليه: «ارسين لوبين في الكهف، العقد المفقود، اللص الظريف، المسدس الصامت، ذو القناع الأسود». مرر عينيه بلهفة على صف الكتب المغلفة والمنزوعة الأغلفة. وقال في مزيج من الأسف والاعتزاز:

- قرأتها كلها . وأروعها ارسين لوبين في الكهف . آه لو تعرف كم هي لذيدة . يذهب إلى بيت ليفتح خزانته فتنخسف به الأرض ، ويقع في كهف ، مثلما وقعت أنت في الحب .
- وابتسم ، ونظر إليّ في مرح مشرق وسألني :
- صحيح ، مهدي؟ .. تحب؟
- هزرت رأسي لأن حلقومي كان جافاً . ورأيت في عيني صاحبي نداوة غريبة . وسأل :
- والمحوبة؟
- قلت وأنا بعد لم أسترد أنفاسي :
- فتاة من المحلة .
- يعني روميو وجوليت وما أدرى؟
- وأحسست بنشوة طافحة . ومرت في خيالي محبوبتي وكأنها تبتسم لي بعينيها نفس الابتسامة التي رأيتها ذات مرة فكانت فجر غرامي .
- ودفعتني قوة إلى أن أبوح له بكل شيء . قلت ونحن ندخل حديقة غازي :
- ولكن يوجد شخص واقف في الوسط .
- من؟ .. أبوها؟
- لا أبوها ولا أمها .. بل شخص تحبه أكثر مني .
- قال صبيح :
- يعني مثل السينما تماماً . روميو ومجنون ليلي . كلاهما كان له شخص آخر - ثم عاد إلى تخوفه - القصة إياها . ألم أقل لك إن الحب يقتل؟
- قلت في لوعة :

- ولكن ليس بيدي .
- أتحبها كثيراً؟
- كثيراً كثيراً . البارحة بكيت كثيراً . فلما سألتني أُمي لماذا أبكي بهذه الحرقرة قلت لها سقطت في الامتحان .
- قال صبيح بصوت خافت :
- السقوط بالإمتحان أهون بالف مرة .
- وفي الليل لا أنام .
- هذا هو العشق بالضبط . مجنون ليلي بلا حية .
- كانت جملة قاسية فلم أقل شيئاً . وبعد صمت قصير قال لي :
- الحق على نفسك .
- لماذا؟
- قبل أن تكمل القصة .
- كيف تكمل؟
- سيقع أحدكما . والظاهر أنت الذي ستقع .
- وسألت في ضراعة :
- ولكن . كيف؟
- ضرب صبيح حصاة اعترضت طريقه وقال :
- إقرأ روايات الجيب .
- بالله ، صبيح ، لا تضحك مني .
- قال صبيح بلهجة جادة :
- لست أضحك منك . مثل هذه الكتب هي التي تعلمك الخروج من كهف الحب مثلما خرج ارسين لوبين في براعة . ولا فائدة من فرتر ولا روميو ولا مجنون ليلي . لو كان في رأسهم خير لحصلوا على محبوباتهم ، ولما قضاوا حياتهم بالبكاء والأنين ، وبعد ذلك انتحروا .

قل لي بربك ماذا تعلمك هؤلاء؟ روميو يصعد من الشباك إلى محبوبته ، ويقضي الليل بالآه والأنة ، ولا يأخذها إلى بيته . ومجنون ليلي يبكي وينظم الأشعار ومحبوبته إلى جانبه حتى تحترق يده ، ولا يخطفها من الخيمة . ثم لماذا لم يقع ارسين لوبين في الحب طول حياته؟ لأنه أول ما يتعرف إلى امرأة تعجبه ينزع منها قلادتها ، ويجعلها تركض وراءه . ولو أحببت أنا لفعلت نفس الشيء .

- يعني تسرق قلادة محبوبتك؟

- ليس شرطاً . ولكن أفهمها أنني رجل . دعني أحب مرة وسترى .

ووصلنا إلى نهاية حديقة غازي . وامتدت أمامنا ساحة الطيران غير المبلطة تتفرع منها أربعة شوارع وكان دفء الظهر قد أخذ يسري في الجو . ولاحت الدنيا شقراء ولو أن الشمس ما زالت خلف السحب المتقطعة . وشعرت بقليل من الانفراج في قلبي ، وبرغبة قوية في أن أسير مع صبيح حتى المغرب . وكانت لصبيح مثل هذه الرغبة . وعبرنا ساحة الطيران ، واتجهنا صوب السدة . وقال صبيح مسترسلاً:

- روايات الجيب تعلمك كيف تتصرف . كيف تحش وتطلع . كيف تحصل على ما تريد . والبنت تحب الجسور ، الملعب على خسين حبلاً لا من يبكي ليلاً ونهاراً . وماذا ينفعها البكاء؟

قارنت ذلك بما وقع لي فلم يسعني إلا أن أعترف :

- صحيح . أتعرف من الشخص الثاني؟ .. ولد ترك المدرسة من الصف الخامس الابتدائي . وطول النهار يخمش هذا ويتعارك مع ذاك . إنه يحسب نفسه رياضياً . ويتباهى بجسمه .

قال صبيح :

- شفت؟ وهو لم يقرأ روايات الجيب . فكيف لو يقرأها؟ ولكنك في

الصف الثاني المتوسط . وتعرف القراءة أحسن منه . ولو قرأت روايات لصرت أشر .

ومشيت على السدة الترابية قليلاً . وصدمتنا رائحة نفظ أسود منبعثة من خط أسود عريض تسير عليه السيارات على طول السدة . فنزلنا منها إلى طريق جانبي ، واشترينا بأربعة فلوس « باسورك » من بائع أفطس الأنف . وكان الباسورك مبللاً مالحاً جداً ، وأغلبه فارغ .

- إن هذا البائع يستحق مسدساً .

قال صبيح بسرعة وكأنه يتوقع هذه الجملة مني :

- أتعرف؟ إن ارسين لوبين أقل عصاجي في الدنيا استعمالاً للمسدس . ولكنه كان يملك دماغاً أكبر من أكبر صخرة . راضع من إبليس . يعرف حيل العالم كله ، وبمنظرة واحدة يعرف بماذا تفكر .

قلت أخاطب نفسي : أنا أحتاج لمثل هذا .

لم يسمع صبيح جيداً فسأل : ماذا تقول؟

- قلت إنه عظيم .

وعدت أقول لنفسي : لا أعرف ماذا يدور في رأس محبوبتي .

- ذات مرة استولى على باخرة بكاملها خلال أربع ساعات مع أنهم أخذوا مسدسه في الميناء . هذه هي الشطارة لا شطارة آلام فرتر .

- أرجوك يا صبيح ، لا تتحدث بالسوء عن فرتر .

- أنا لا أتحدث بالسوء . ولكن لماذا قتل نفسه كما تقول أنت؟ لا يقتل نفسه إلا الخائب في الدنيا .

- كان عاشقاً لا أمل له .. (ثم أضفت في سري : مثلي) .

- عاشق . آه لو أحبيبت لعلمت العشاق كيف يتصرفون مع محبوباتهم .

قلت :

- لو أحبيت لما كان لك نصف هذا اللسان .

- لماذا؟

- لأنك ستخاف من محبوبتك . أنا أرجف أمامها مثل السعفة .

- وهل هي سحاة حتى أخاف منها؟ أنا لا أخاف من أي مسدس فكيف أخاف من امرأة .

- المرأة أصعب من المسدس .

- أوه . إذن فكأن خائباً طول عمرك ما دمت تخاف من امرأة .

وآلني قوله . ومشيئنا صامتين عبر أزقة مقعرة تجمع في وسطها ماء

المطر ، وبيوت بلا نوافذ ، حيطانها طينية واطئة ما زالت هشة من مطر يوم أمس . وأحسست أنني أسير في مدينة غريبة . وتوقعت أن يهبط عليّ في أية لحظة شخص من فوق الحائط ، بيده مسدس ، وعلى عينيه قناع مثل ذلك الرجل الذي رأيته على غلاف روايات الجيب عند سينما غازي . كنت أشعر أنني ذاهب إلى مغامرة ، وحين جفنا أكلنا حلاوة تمر ، وخبز شعير . كانت الحلاوة دافئة هشة ، وللخبز طعم غير اعتيادي زاد إحساسي بمجدة ما أرى . كان كل شيء جديداً عليّ . حتى تلك القطعة التي قفزت عبر الماء الراكد إلى الجانب الآخر من الزقاق ، بدت لي أكبر من قطعة ، وأشطر من كلب . وكنت أشم روائح ريفية ، رائحة دجاج ، وروث محروق وطين نقي ، وأحس بالهواء البارد النقي يتسرب إلى رئتي . وعندما عدنا في المساء كنت لا أحس بأي تعب ، بل بخفة غريبة ، وبعد أن ارتقينا السدة الترابية قلت لصبيح :

- دعنا نعود إلى شارع غازي .

يعني حرام؟

- عندك فلوس؟
- عندي. بس ما أعطيك. أخاف أن تسكر بها.
- ضحك. وكانت ضحكته مكتومة بـ «اليشماغ» الذي كان يلف به رأسه. ولكن الرجل رأى اهتزاز كرشه يتدلى من فوق حزام أسود عريض مشدود على «دشدشة» زرقاء مقلمة.
- أسكر؟ راح وقت السكر الأصلي.
- ورفع ذراعه عالياً ليشير إلى طول الزمن.
- إذن، لأي غرض؟
- أريد أروح للحمام. يعني حرام؟
- لا، مو حرام.
- شفت؟ وأدار له وجهه متشجعاً، فرأى الرجل جبينه العالي يلمع في الضوء، وأرنبة أنفه المريضة. وسمعه يقول - وحتى إذا سكرت. صار لي شهر ما ذايق العرق. يعني إذا شرب الإنسان في الشهر مرة، حرام؟
- لم يجبه الرجل. ذلك من حكم الدين والسنة. وطال الصمت.
- وخاف السائل من طوله، فقال مستدركاً.
- لا، والله، أريد أن أغسل جلدي.
- بقي الرجل في صمته. أثارت هذه الجملة حركة في ذاكرته، واستدعت له صورة قديمة مدفونة في أعماقها. آنذاك لم يكن ذاوياً.
- هشاً، مترهلاً، كما هو الآن. كان يبدو لعينيه الطفوليتين جباراً ضخماً، مارداً نحاسياً ملتحم الجلد، تتراقص عضلاته، وتكاد تقفز

مع كل حركة من حركاته القوية .

- أبو عطية يعطي .

تنبه الرجل له .

- من أبو عطية ؟

- ما تعرفه ؟ الله ...

أحس الرجل بحياة آتمة . وكأنما كان يظن أن هذا الثناء موجه له ، فإذا هو لغيره .

- إذن ، الله يعطيك .

تنهه ، وقال :

- يعطي ؟ كان أعطى من زمان . فات الوقت .

كان ذلك أكيداً . فهو الآن لا يثير في نفس الرجل إلا الشفقة والرثاء ، والإمتاع أحياناً . بينما كان في طفولته صاحب أعاجيب . آنذاك كان صوته يرن رنيناً قوياً ، وكان يملأ الأرجاء ضجة وحممة ولهاثاً . وكان يراقبه من بعيد ، من خلال البخار المغبش ، في وجل وإعجاب . كان كل رجل يبدو بين يديه ضئيلاً ، صديئاً ، كامداً ، مكوراً على نفسه ، مستسلماً له كل الإستسلام . وكان يملك السطوة عليه ، والقدرة على أن يقلبه ظهراً لبطن ، وجنباً لجنب ، وأن يأتيه من أمام ومن وراء ، ومن يمين ومن شمال ، وأن يضربه هنا ، ويطبطنه عليه هناك ، وأن يسكب عليه المقدار الذي يريده من الماء بالحرارة التي يريدها ، والرجل المفعول به لا يكاد يحتاج . لا يرفع صوته إلا همهمة متوسلة ، وأنيناً متوجعاً أحياناً وخلال ذلك كان شيء ينمو بين يدي الفاعل ، يولد شيئاً فشيئاً ، من خلال الحلك والتدليك ، وطاسات الماء ، ورغوة الصابون ، كان إنساناً يخلق من جديد ، يسلمه جلده على الأقل ، ويلبس جلدأ جديداً ،

لامعاً ، متألّفاً ، صقيلاً ، متورداً ، مفعماً بنسغ حياة جديد . وعندما كان يلف بالفوطة كان يبدو وكأنه وليد جديد خرج من بين يدي مولدة ماهرة .

- تذكر لما كنت ادلك لك؟

- أذكر .

هزّ رأسه ، تضخياً لعمله ، وأشار بذراعه إلى الرجل وكأنه اتهم لا مرد له :

- أنا أعرف جسمك أكثر مما تعرفه أم ولدك .

وفكر الرجل بمجون وحقن : إنها لا تعرف إلا النصف الأول من جسدي ، وأقل من ذلك . وحتى هذا زهدت فيه . وعاقته . والآن أنا وأنت وحدنا في البيت . وسمعه يقول :

- كنت تخاف مني خوفك من الحية . تذكر؟

هزّ الرجل رأسه . وقال في نفسه : أذكر .. أذكر لما دفعني أبي إليك لأول مرة قائلاً : هذا جواد سيدلك لك . أنا تعبان .
- كنت فروجاً بين يدي .

وتذكر الرجل أول عمل قام به جواد . خلع المئزر الذي كان الطفل يحكم شده حول خصره . خلعه بقوة وشناعة أفزعته كثيراً ، وكأنه خلع الرجولة التي كان يستشعرها بعد أن أصبح يستحم في حمام الرجال مع أبيه ، حين صار حمام النسوان محتج على دخوله !

- وتصوّر ؛ كم كان أبوك يعطيني؟

- كم؟

- عشرة فلوس .

ضحك الرجل من أعماقه ، سرى ذلك عنه .

- قليلة .
- في ذلك الوقت كانت تساوي أكثر من مائة فلس ، إذا تكلمت وأعطيتها لي الآن .
- تأمر .
- ولكن الرجل لم ينهض من مقعده ، ولم يأت بحركة . كان يود لو يداعبه . فإن ذهاب زوجته مع ولديها زعلانه إلى بيت أبيها جعله مهموماً ، ثقل الرأس يغلي الدم في عروقه ، ويكاد ينبجس من مؤخرة رأسه . وقد هبط عليه جواد سلوى من ملاك الرحمة بالتعساء .
- (تأمر) هذه ما تتصرف بالسوق .
- لا تستعجل . الحمام يبقى حتى منتصف الليل .
- هدأ جواد قليلاً . إنطرح بظهره على متكأ الاريكة ، وكأنه استسلم إلى ما لا بد منه . . الإنتظار . فانتزاع الفلوس من الناس عملية صعبة ليس مثل جلفهم وتدليكهم .
- تفضل ، إحك ، إسأل .
- فوجيء الرجل بذلك . كان منضوب النفس خاوي الرغبة . فسأله ما ورد على لسانه :
- كم سنة اشتغلت بالحمام ؟
- سبع عشرة .
- وأشار بثلاث أكف مفرودة الاصابع ، وأصبعين آخرين . سبعة عشر عاماً !
- عمر !
- تنهد جواد وقال :
- لو جمعت الوسخ الي طلّمته من جلود الناس لصار تلاً ، ولو

حسبت الصابون اللي غسلتهم به للأخانا في سوق الشورجه ، ولو
حسبت الناس اللي غسلتهم لصاروا فرقة في الجيش العراقي .

- ولو حسبت الفلوس اللي أخذتها؟

- وين الفلوس؟

وأجاب على سؤاله بأن مرر أصابعه على فمه نزلاً . يعني
ازدردت خبزاً .

- يعني ما حصلت من الحمام؟

- بلى .. حصلت! أي نعم ، بلى حصلت ذخراً راح يبقى معي حتى
الموت .

وكان واضحاً أنه يسخر . ولم يرد الرجل أن يثير شجنه ، أن
يجعل حديثه مأسواً . كان يود فقط أن يطرد الوحشة بمحدث فارغ .
فالحوشة في بيت فرغ بعد امتلاء تجثم على الصدر كالكابوس . إلا أن
جواداً أصر على أن يسمي ما حصل عليه : الروماتيزم!

وقال الرجل في سره ، وقد غشيت غاشية من الحزن : والروماتيزم أو
ضغط الدم ، كلاهما نتيجة لشيء واحد . الحاد والبارد ، تقلب
الجو ، عدم الاستقرار . وأحس الرجل بفوران الدم في مؤخرة رأسه .
- الروماتيزم هو الذي طلعك من الحمام؟

- الروماتيزم! هه!

وكان الرجل يقول ذلك لغاية في نفسه ، وكأنه يريد أن يعرف
هل الضغط الذي يعانیه هو الذي سبب خروج زوجته من البيت ،
أم خروجها هو الذي سبب ضغط الدم؟

- كنت راضياً بالروماتيزم؟ (مثل راضي بضغط الدم؟)

- ليش طلعت ، إذأ؟

- قصة طويلة ، كأنك لم تسمع بها . أم الولد لم تحكي لك؟

- قصة مسعودة؟

- مسعودة السبب والمسبب.

وعاد جواد يذكره بقصة نسيها من تراكم أحداث أسوأ منها.
كان جواد قد تعهد مسعودة اليتيمة، وتكفلها، وساعدها كثيراً،
واستطاع أن يقنع صاحب الحمام بأن يعطيها مناشف الحمام
لتغسلها، بينما كان ابنه يريد أن يعطيها لنساء أخريات دخل معهن
في منفعة مشتركة. كسب مقابل متعة. واشتغلت مسعودة في غسل
مناشف الحمام عدة سنوات. وفجأة فقدت منشفتان، واهتبلها الفق
الشقي ابن صاحب الحمام، فرصة للنيل من مسعودة، ومنع عنها
الفسيل. وتعتقد الوضع حين وُجدت المنشفتان عند مسعودة في حمام
النساء بعد شهر.

- سرقتهما؟

- سرقتهما! بنت حلوة وبعمر الورد، وما عندها منشفة تتنشف بها،
يعني حرام تتنشف بالمناشف التي ابيست أصابعها؟
- ولكن الذنب وقع عليك.

- بعدها طردوني. والحقيقة طردني موسى بك صاحب الحمام وكان
لا يريد غسالة شريفة، مثل مسعودة.
لحظات صمت. ثم سأله الرجل:

- ومسعودة؟ أين هي الآن؟

لم يجب جواد مباشرة، بل سكت منشغلاً بتعديل وضع يشاغفه ثم
قال بصوت مخدول:

- تزوجت.

ولم يشفعها بـ « يعني حرام تتزوج؟ »، بل أضاف باهت
الصوت: « راحت! »

وفكر الرجل مع نفسه : ربما كان يطمع بشيء منها؟ فقال
« راحت » دون أن يبرر سلوكها الإنساني بمجلته المعهودة ، ربما كان
يأمل بأن هذا العصفور الذي رعاه ، لا بد أن يستجيب إلى لمسات
يده أخيراً . ولكنه طار إلى عش رجل آخر .
- إستقرت .

- الله يعلم . وكأنها ما كانت مستقرة . كانت تحصل من الحمام ستة
دراهم بالاسبوع .
- ولكن المرأة تسمى إلى رجل .

همهم جواد بمجملته لم يفهمها الرجل . إعتراض؟ أسف على أن لا
يكون الرجل هو؟ كان ينظر اليه نظرة كثيفة وعميقة . وكأنه يقول
له : طال الإستجواب ، يا رجل ، والفلوس نسيته! كان يبدو غامضاً
وهو متلثم في شماغه ، يخفي قتمة الشفتين ، وتوتر الشاربين ولم يعد في
الجو أي مرح الآن . نهض الرجل ليجلب له الفلوس .

ولما خلا إلى نفسه أخذ يحس بنفس السأم والوحشة التي يحس بها
في كل مساء وليل وصباح طوال الأيام السبعة التي فارقتة فيها
زوجته وولداها . طاف في هذه الردهة التي كانت ملعباً للأطفال ،
ومبعث صور التلفزيون المرتعشة ، وأغاني ما يطلبه المستمعون ،
والنكات والزعل ، والعراك ، وكل ما ليس له حصة فيه ولا
مشاركة .

والقى نظرة على غرفة الاطفال . سريران متقابلان ، وكريسيان
صغيران ، وطاولة عليها أرنب من مخمل ، وعلى الحائط رسوم
مقطوعة من مجلات ملونة . والغرفة الآن خالية ، والطفلان
منحشران مع أمهما في غرفة صغيرة . والأم تقرأ في اذنيهما كلمات
الهجو والعتاب على الأب القاسي ، والاناني ، الذي لا يجب إلا نفسه

وكتبه. وترك الغرفة إلى حجرة نومه. سرير عريض، ودولاب ملابس، وصوان زينة، وتلك المكتبة الصغيرة الملعونة التي كانت الزوجة لا ترتاح لها، وتعتبرها نشاراً، بالوعة في غرفة نوم. هي والبالوعة لا تمتلئان. تستنزفان ولا تشبعان. وكانت تريد أن تسد هذه البالوعة بماكنة خياطة!

خلع الرجل نعاله، واستلقى واضعاً يديه تحت رأسه، وقدماً فوق قدم. واستسلم لأفكاره. هو حر الآن في أن يستسلم لها. بينما كانت لا تروق للزوجة. أليس بطراً أن تضطجع هذه الضجعة، وتفكر بأفكار ليس لها صوت تسمعه لتعرف ما هي. كانت تضيق بها، لأنها تقذفه خارج أسوار العائلة التي يجب أن يكرس لها نفسه، وماله، ووقته، وأفكاره، وأعصابه، وكانت الزوجة تحرق هذه الأعصاب والصمت الذي ترنخي فيه بدندنة لا تنقطع.

قال لها: هذا طغيان. أنا رجل مثقف، خريج كلية، ألا يحق لي أن أشتري كتاباً بنصف دينار؟ قالت: «كأنك لم تشبع من الكتب! هذه الخزانة تكاد تنفجر بها». «لم أقصر عليك في شيء. أبوك البزاز لم يكسك مثلما كسوتك أنا» وعادت إلى حكايتها التي لم تشبع منها: «لم يقصر؟ خلال عشرة أعوام وأنا ألح عليك بأن تشتري ماكنة خياطة!». «أوه، إحسان! هذا مو إنصاف. كلما جمعت فلوساً قليلة وأردت أن أشتري لك انبشقت لك حاجات أخرى، وصرفتها. أما أنا فلم تتبدل حاجاتي: الكتب وزجاجة من البيرة أحياناً». «هذا هو! أنت لم تخلق إلا لهذا! كتب وخمرة!» وضاق بها، ورفع صوته عليها، على الكابوس الذي يشد على خناقها. وتطور الجدل. وخيّل إليه أن الولدين ينصتان إليهما. وفي الصباح ذهب إلى عمله، ولما عاد كان البيت فارغاً.

أنزل قدمه ، وتمرغ الرجل في السرير البارد ، سرير الأحزان
كما كان يسميه ، كلما خلا إلى إحسان فيه ، واستلقى طارداً عنه
الوحشة التي تقصم ظهر البعير ، وتحول الحديث شيئاً فشيئاً إلى
شكوى ، إلى تألم ، وحتى إلى بكاء . مأساة وكانت لا تجد أية مأساة في
أن يصاب رجل بضغط دم عالٍ ، وهو في الخامسة والثلاثين ، ولكن
المأساة أن تحتل مكتبة مكان مأكنة خياطة! وكانت دائماً تحس أنها
مظلومة . المداعبة والاستعطف يثيران شجنها ، يشدانها بالحاج إلى
مطالبها التي لم تستجب . وكانت كل مطالبها ، شكاواها تتجمع في
ساعة السرير تلك ، في ساعة النجوى والمناغة واللذة ، وتبلغ ذروتها
كلما بلغ هو ذروته . حتى اقترنت اللذة عندما بالإغتصاب .

أوه ، تبأ ، سمع دقاً على الباب . ألعها هي؟! يا رب!
نظر إلى ساعته . كانت قد تجاوزت العاشرة . وساوره الشك وهو
يبحث عن نعليه .

وأصيب بخيبة حين سمع سعال رجل ، وهو يقترب من الباب .
وبعد ثوان كان جواد أمامه .

- أشو جيت؟

- أريد أنام عندك . أم الولد طالعة .

ودخل غير مدعو ، وشم الرجل رائحة عرق .

- راح تخليني ما أنام الليلة .

قالها الرجل بضيق ، وكان يعرف من بعض الليالي التي قضاها
جواد عنده ، أن المدلك القديم يلطم فخذه بقوة اثناء النوم ، ويتمتع
تمتمة موحشة ، وكأنه يقوم بتدليك في نومه .

- راح أنام نومة هادئة . حمام ونص ربع عرق!

تأفف جواد نفثات خر ، وقال :

- بعد الحمام أردت أن أتدفاً بنص ربع عرق ، يعني حرام؟
- مو حرام ، إذا لم تشرب منذ شهر .
- ضحك جواد ، وزايل الرجل شيء من غمه . جلس المدلك على
- نفس الأريكة . تلمس مفرشها بباطن كفه ، وقال :
- زين ... ناعم ! راح أناام نومة عميقة ... أم الولد زعلت للتالي؟
- الله يعلم .
- لازم تداريها . النساء حمامات ما يأنسن أبداً . عيونهن دائماً في
- السماء .. حَب ، حَب .. لازم تنثر لهن الحب دائماً ... لقط .. وإلا
- طارت .
- وقال الرجل لنفسه : ربما هي الحكمة التي اكتسبها جواد من
- قصة مسعودة إذن ، فقد كان يطمع في شيء منها ! قال الرجل في
- شيء من التهمك الملتاع !
- كل فلوسنا للحَب ... اللقط .
- المرأة تحتاج إلى مداراة .
- معلوم .
- ولكن الجزاء غير معلوم . يا ليتك تعرف كيف اشتعلت لحورية .
- من حورية هذه؟
- الفنانة اللي كنت أشتغل في بيتها . ثلاث سنوات . ما تعرف؟
- أعرف كنت تشتغل (وخجل أن يقول خادماً) في أحد البيوت .
- ولكن لا أعرف عند من؟
- عند فبانة . حورية على اسمها . ثلاث سنين . كانت لا تنادييني إلا
- بـ « عيني ، حبيبي جواد » حتى حسبتهأ تحبني من صدق . أنا رجل
- أيضاً ، حرام تحبه امرأة؟
- لا ، مو حرام .

- كنت أخدمها على أربعة وعشرين قيراط .

ومن خلال الاسئلة التي ألقتها الرجل تباعاً فهم أن جواداً كان مكلفاً بجمام الفنانة فقط . وكان لها حمام أبيض كبير فيه حوض صقيل ، ومرآة كبيرة ، ورف مملوء بالعطور والصابون والدهون ، واصباغ الشعر ، ومانيكور الاظافر ، شبهه جواد بصالون « حلاقة الأمراء » .

- وكنت تغسل فيه؟

- لا ، كانت لا تقبل . كنت أغسل في السطح . حقها! شافتي مزنجير .

- هذه التي حسبتها تحبك .

- الحب له حدود .

وقص عليه كيف كان يهيء الحمام كل يوم . يغسله قبل الإستحمام ، وبعد الإستحمام ، وينشف الارض . وكانت الروائح تدير رأسه . ولكنه كان راضياً بهذا العمل . تقرحت يده من الزرنيخ ، أو لا يدري ما هو ، تلك المادة النافذة الرائحة التي يستخدمها للتعميم . ومع ذلك قبل ورضي . وبمثل الجهد الذي كان يبذله في الماضي لتنظيف إنسان ، جلد بشري ، ليجعله يلعب كان يلعب حمام الفنانة ويصقله ، ويعطره ، ويجعله متألّقاً مثل جلد بشري معافى .

كان جواد يطبق رأسه على صدره . وظن الرجل أنه غفا . كانت يده الممتدة على مسند الأريكة أكثر بياضاً من جلده ، وكان اليشماغ قد تهدل الآن ، وغطى الوجه كله . كان يتكور كصرة من قماش

مهلهل . ولكن ساقيه النحيلتين كانتا تتأرجحان . ومنهما عرف الرجل أنه يقظان .

- إذن ، ليش تركتها؟

هب جواد ، وصار للصرة الممزقة شيء من الطول :

- أنا تركتها؟ هي التي تركتني ..

- والذنب عليك؟

أعاد السؤال حيويته . حرك يده حركة دائرية مبهمه ، حركة

استغفار وأسف . ربما . ثم ارتفع رأسه ونظر إلى الرجل ، وقال .

- يمكن ذنبي!

ثم قال بصوت حاد متحشرج :

- بس الله يرحم أبوك ، يعني حرام مرة بعمرك تشوف مرية ري كما

خلقتني؟ أنا الذي شفت بقدر شعري من الرجال العريانيين ، ما يحق

لي أن أشوف امرأة عريانة؟ يعني حرام؟

كان قد تعب من صقل الحمام وتعقيمه ، وتعطيره ، وإشعال

البوتغاز . وكانت هي تستعجله وتصرخ به ، لأنها تريد أن تذهب إلى

عملها مساء . وما كاد يخرج من الحمام حتى دخلت ، وشرعت تخلع

ملابسها .

لاحت له الذراعان البضتان الناصعتان ، ثم ريلة الساق الممتلئة

الملاء . وكانت قد تركت الباب موارباً - سهواً أو

استعجالاً - فشجعه ذلك على أن يكمن في مكان لا تراه فيه ،

ويراقبها تنضو ثيابها . تحل حمالة الثديين فينفر نهدان ممرعان

منتهيان بقطعتين من الملابس الأحمر . راقبها ترفع ثدييها ، وكأنها

تزنهما ، ثم تتمطى أمام المرأة ، هازة ردفها ، معجبة بجسمها

الصقيل ، اللامع ، الغض ، المتلىء لحماً وطراوة وليناً ونعومة . ثم
مدت يديها إلى خصرها ، وخلعت آخر غلالة حريرية عن جسمها ،
ورأى جواد وندت منه شهقة لا إرادية جعلتها تلتفت فتراه
يراقبها . صرخت به ... وبعد الحمام طردته .

١٩٧٢

